المركز القومى للترجمة

ألبرتو موسى

لغز القاف

ترجمة

وائل حسن

QAF ق

2246

اللغز هو اللغة العربية ذاتها؛ أصلها، وتقاليدها ، وبداوتها، وحريمها، وحسابها، وكتابتها، وقصة تتعدد رواياتها فتصعب على التصديق. مما يزيد من سحرها.
فى "لغز القاف" يلعب الروائى البرازيلى ألبرتو موسى دور باحث ينشد الحصول على شهادة فى الأدب الجاهلى، فيدور بمؤتمرات الأدب العربى ومتاهات المكتبات، ويوازن بين الأصالة والزيف فى نصوص عمرها مئات السنين، وكان مرشده قصاص أعمى هو خورخي لويس بورخيس.
ينتج عن هذه الرحلة الأدبية نثر شعرى ذو جمال نادر، تتخلله معارف عن عالم شرقى قديم وشاسع، طالما افتتن الغرب بتخيله. ولكن ما يخلبنا غير محصور بعالم أسلاف الكاتب ذو الجبال الخرافية، والصحارى التى تهب فيها الرياح القارسة، والبدو، والشعراء، والعفاريت الأسطورية. إنها الكتابة العربية، تلك الشخصية التى تضاهى فتنتها كل ما سواها فى لغز القاف.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

لغز القاف

(رواية)

لغز القاف

رواية

تأليف: ألبرتو موسى
ترجمة: وائل حسن

2015

المحتويات

تنبيـه

القصة الرئيسية فى هذا الكتاب مقسمة إلى ثمانية وعشرين فصلا، عنوان كل منها حرف من حروف الأبجدية العربية.

يتخلل تلك الفصول الرئيسية فصول أخرى وسيطة غير مرقمة، سميتها بالتبادل "مؤشرات" و"استطرادات".

أما الاستطرادات فهى حكايات ترتبط بشكل أو بآخر بالحبكة الرئيسية وكانت فى الأصل جزءا منها، ولكن بدا لى من الأفضل فصلها للتسهيل على القارئ.

أما المؤشرات فتحتوى على أساطير عن أبطال من شعراء العرب مثل بطل هذه الرواية، وهى قصص تمكن القارئ من تقدير مواهب هؤلاء الشعراء.

وأنصح القراء الذين يرغبون فقط بالاستمتاع بقصة مغامرات موجزة أن يحصروا اهتمامهم بالحبكة الرئيسية ويقرأوا فصولها

بالترتيب الأبجدى، دون إضاعة الوقت فى قراءة الفصول الوسيطة التى يمكنهم قراءتها فى أى وقت آخر، وبأى ترتيب.

ولكنى أستثنى من هذه النصيحة أولئك القراء الذين يريدون الحصول على معرفة أدق بالثقافة الجاهلية والعالم الأسطورى المحيط بالقصة، فأوصيهم أيضا بقراءة المؤشرات.

وأخيرا، على من يجسرون على محاولة حل لغز القاف بأنفسهم قبل الانتهاء من قراءة الرواية أن يقرأوا أيضا الاستطرادات ويعتنوا كذلك بالعبارات المقتبسة فى صدر الفصول الرئيسية، وبالمعلومات القليلة المعطاة أسفل كل حرف من الحروف العربية الثمانية والعشرين.

(أ)

ألف
الحرفَ الأول
كرقم : ١
بالتسلسل : الأول
أول حرف فى "إله" و"الله"

"عندما أكذب كذبة، ألا أكون بذلك قد كشفت عن حقيقة أقدم منها؟
- شهرزاد الحقيقية -

العصر الجاهلى ـ كما توصف تلك الفترة من تاريخ العرب التى انتهت بظهور الإسلام ـ كان عهدا أصبح فيه الرجال أكثر نبلا من الخيول، وباتت فيه الفراس تحسد النساء على جمالها. وكان أيضا العصر الذهبى لشعراء الصحراء الذين ارتفعوا بالشعر إلى قمم لم يبلغها سواهم فى أى لغة كانت، أو فى أى قرن من الزمان.

ولكن بحكم الذوق الرفيع فى ذلك العصر، لم تفز إلا سبع قصائد فقط بشرف الكتابة على جلود الإبل، لكى تُعلَّق على جدار الكعبة وتخلد فى ذاكرة البدو.

عندما ذهبت إلى بيروت منذ بضعة أعوام، أخذت معى نسخة من قصيدة ثامنة كانت بكل تأكيد ضمن القصائد التى علقت على جدار الكعبة. تطلق المصادر غير الموثقة على هذه القصيدة اسم "قافية القاف"، وهو عنوان مفاده أن القصيدة قافيتها حرف القاف وموضوعها الجبل المسمى بالقاف، وهذا تلاعب بالألفاظ كما هو واضح.

ولكن الأساتذة والعارفين بالأدب والمثقفين الذين تشرفوا بقراءة القصيدة أكدوا لى أنهم لم يكونوا قد سمعوا بها قط، وأنهم كانوا يجهلون تماما قصتها وشخصياتها. فأوضحت لهم أن ذلك النص قد أُعيد تكوينه وأن مثله مثل التمثال أو اللوحة أو الأثر المرمم، لا ينتقص من أصالته أنه قد تم ترميمه.

كان الاعتراض الرئيسى لهؤلاء العلماء وأساتذة جامعات القاهرة وبيروت العريقة أننى لم أستند إلى مخطوطات معروفة ولم أُبْدِ استعدادا للكشف عن مصادرى.

اضطررت إذن للإقرار بأن لا مصادر عندى، إن كان المراد بذلك المصادر المكتوبة فقط، وأن جَدّى نجيب، عندما وقع فى غرام جدتى مارى وهرب من بيت أهله ليلحق بها خفية على ظهر السفينة التى جاءت بأسرتها إلى البرازيل، حاملا معه حقيبة ليس فيها إلا

الكتب، كان هو الذى أتى ببعض أبيات قافية القاف التى حفظها عن ظهر قلب.

تعلمت جوهر القصيدة من جدى. أما بقيتها، تلك الفجوات التى لم تحفظها ذاكرة نجيب المسن، فقد استعدتها من الأساطير التى جمعتها خلال أسفارى إلى الشرق الأوسط ومن معلومات تاريخية متفرقة استطعت الحصول عليها من مصادر عديدة.

على الرغم من ذلك، فقد اعتبروا النص مزورا. وفى الواقع أن النص يختلف كثيرا فى بنائه وأسلوبه عن بقية المعلقات، ولكنه أيضا سبقها فى طريقة تكوين الصور الشعرية التى توجت اللغة العربية وشعراءها بالمجد. ولا شك أن هذه الميزة تحديدًا هى التى اعتبرها الخبراء زائدة عن الحد.

وبذلك لم أنل شرف نشر القصيدة، حيث إن أحدا لم يقبل المصادقة على ترميمى لها. وكانت النسخ المتداولة منها (لو كانت بالفعل متداولة، وهو أمر يشوبه الريب) نسخا غير موثوق بها، كُتِبت باليد على ورق فلسكاب.

وكأن هذا لا يكفى، فقد وصف مؤرخ معروف للأدب العربى القافية بأنها أكبر عملية تزوير أكاديمى فى تاريخ الدراسات السامية.

غضبت غضبا شديدا، ولجأت إلى الصحف لكى أثير زوبعة، ووصمت هؤلاء الأساتذة بالحمق، ودعوت الخبراء فى المصادر غير الموثقة للدفاع عن القصيدة، ولكن للأسف اكتشفت بالتدريج أن عدد هؤلاء الخبراء لا يتجاوز واحدا فقط، هو أنا.

استطراد:
العربى الأول

كانت أول مرة كتبت - أو بالأحرى نقشت - فيها كلمة "عربى" لوصف بدوى يركب جملا فى عام ٣٥٨ قبل الميلاد، عندما انضم جُندُب وألف جمّال آخرُون إلى بنى إسرائيل وارم فى مواجهة الجيوش الآشورية.

لا يعرف المؤرخون من كان جندب هذا بالتحديد ولا أصل هؤلاء العرب المخيفين. اعتبرهم اليهود من سلالة إسماعيل - الابن الأكبر لإبراهيم وأخو إسحق - ولكن اليونانيين والفينيقيين اتفقوا على أنهم أبناء كادموس. أما المصريون فاعتقدوا أنهم نبتوا من الرمال التى رُشت بمني أوزيريس، وظنهم الفرس براز أهريمان.

وعند العرب كان العربى كل من نطق بالعربية بوصفها لغته الأم. وبهذا المقياس كان العرب أمة فريدة، رغم انقسامهم إلى المئات من القبائل وإلى أنسال أصيلة وغير أصيلة لا تنحدر بالضرورة من سلف واحد.

لم يعتبر عرب الجاهلية القبائل التى انحدرت من أبناء إسماعيل الأحد عشر عربا بالمعنى الضيق للكلمة، وكان هؤلاء قد استعربوا على يد العرب الحقيقيين الذين نشأوا فى اليمن وعلموهم لغتهم وعاداتهم.

وتحكى الأساطير عن شخص يدعى "يعرُب" كان أول من سكن فى جبال الجنوب وأول من رعى العنز وأوقد البخور وأعد النقوع التى نسميها القهوة.

وكان يعرُب هذا أول من تكلم بالعربية. غير أن اللغة العربية، بخلاف بقية اللغات البشرية، لم تظهر بعد سقوط برج بابل، ولكن اخترعها يعرُب.

وفى ذلك الزمن، كانت اللغات تحتوى فقط على أفعال وأسماء، بالإضافة لبعض الضمائر والأدوات. اخترع يعرب النعت، ولكنه لم يكتف بذلك فقال مقولته الشائعة:

- "أريد لغة لانهائية، لكل كلمة فيها مرادفات لا تُعد".

واستطاع يعرُب من خلال العمل الدؤوب أن يجعل من العربية لغة لانهائية، ولكنه واجه مشكلة: كلما بدل كلمة بمرادفتها لم يَحْصُلْ على نفس المعنى الدقيق المحدد الواضح، بل كانت تظهر دائما فكرة جديدة ومعنى جديد يختلف بعض الشىء عن الفهم الأصلى.

كان هذا الحال فى كلمة "جمل" التى كانت فى البدء مرادفة "لجمال"، وأيضا "بيت" التى ساوت "بيض".

ولسوء الحظ تسرب خبر هذا الفشل فألهب خيال الصعاليك الذين كانوا أول من بدأوا فى نظم القصائد، مما دفع يعرب لتجهيز بعض الرجال بالسلاح لقتلهم، ولكن بلا فائدة، فقد انتشرت آفة الشعر إلى النساء، وباتت هؤلاء يخبئن المطارَدين ويُلبسنهم ثيابهن لمساعدتهم على الهرب.

استنكر يعرُب ذلك العار وواصل حصاره إلى أن قام أحد الشعراء المسمى عوض، ولقبه أيضا عوض، بنظم قصيدة هجاء كان لكل كلمة فيها معنيان. كانت هذه نهاية الأمر.

وقال يعرُب مطرقا رأسه بيأس: "لم تعد الكلمات حتى مرادفة لنفسها".

تختلف الروايات عند هذا الحد وتتعارض، ولكن المؤكد أن يعرب انصرف عن صحبة الناس؛ واختلى بنفسه فى الجبال لكى يدرك بلغته مدارك الكمال.

وقضى ثمانية وعشرين عاما فى الوحدة، وطال شعره ولحيته حتى أصبح من الصعب التعرف عليه، لولا أنه كان الشخص الوحيد الذى ما زال باستطاعته أن يخترع الكلمات بين لحظة وأخرى. ولكن فى كل مرة كان يكتشف عدم وجود أى كلمة تطابق مرادفتها تطابقا تاما فى الدلالة بحيث لا يختلف معناهما قيد أنملة.

وعلى فراش الموت، وبعد أن فشل فشلا ذريعا، جمع أبناءه ليكفر عن خطيئته وقال:

- " لا أؤمن بالروادف ".

ولم يتفوه بعدها بشىء.

(ب)

باء

الحرف الثانى

كرقم: ٢

بالتسلسل: الثانى

أول حرف فى "بكارة" و"باب"

"الكتّاب نوعان: من لا ذاكرة له، ومن لا قول له"
ـ مجهول

كانت الظروف التى أدت بالشاعر صاحب «قافية القاف» وبطل هذه الرواية إلى حل لغز القاف هى نفسها التى أوقعته بغرام ليلى، ولذلك لا أستطيع أن أبخل بالذكر على جلد البعير الذى كتبت عليه هذه القصة لأول مرة، رغم علمى أن من سيقدرون قيمته الحقيقية قليلون.

أما ليلى فلا نعرف عنها الكثير، ولذلك سأنصرف لتخليد اسم الشاعر الغطاش وقبيلته اللبؤة، وسأعيد نظم أجمل القصائد،

وسأكشف عن تفسير أكثر الألغاز إثارة، وسأفند أساطير عن أفعال الجن وقدرات الآلهة. فهكذا الحال: لا يؤلف الكتب إلا من يزهون بأنفسهم.

عرفت بأسطورة الغطاش منذ طفولتى، حيث كنت أجلس على الأرض أمام كرسى جدى الهزاز، أنا وهو وحدنا فى مصنع الملابس القديم الذى كان فى مؤخرة البيت الكبير فى شارع فورموزا، فى مدينة كامبوس دوس جويتاكازيس. وكان جدى يروى لى بالبرتغالية ما أظنه اقتباسه الشخصى من القافية.

ومنذ البداية خلبتنى تلك القصة عن شاعر عبر الصحراء بحثا عن امرأة لم يعرفها، ولغز يتعلق بجبل أسطورى دائرى، وعفريت أحول وأعمى يستطيع السفر عبر الزمن.

أتذكر جيدا انفعال جدى فى كرسيه الهزاز، وكنت أحس بأنه يصدق قصة اللغز، وأنه باستطاعتنا نحن كبشر من لحم ودم أن نعود إلى الماضى. وكلما بدت عَلَىّ الريبة نظر إلى نظرة صارمة وأشار إلى أداة يغطيها التراب اكتشفت فيما بعد أنها تلسكوب صغير.

ومات جدى نجيب قبل أن يشرح لى ما هو التلسكوب، وبطبيعة الحال كبرت وقد حفرت القصيدة فى ذاكرتى، ولكنى أردت الحصول على نسخة مكتوبة منها. ونقبت فى بيت شارع فورموزا، وقلبت فى الصناديق، وفتحت كلاً من الخمسة آلاف كتاب المصفوفة

على الأرفف، وأسقطت التلسكوب من مكانه، ولكنى لم أجد إلا بضع أوراق منفصلة كتب عليها جدى بخط يده ملاحظات متفرقة عن الأدب العربى، دون أى ذكر لمغامرات الغطاش أو للعفريت الأحول والأعمى.

ولكن كان هناك رسم لشجرة عائلتنا عاد بأصولنا إلى قبيلة اللبؤة التى عاشت منذ القرن الخامس فى الصحراء المحيطة بتلال الخليل.

كانت هذه الرغبة فى استعادة الشظايا الضائعة وإضفاء الشكل المكتوب على القافية هى دافعى لتعلم اللغة العربية الفصحى والعبرية، بالإضافة إلى اللهجات السيريانية، وحتى منقوشات لهجة اليمن البائدة. كما انغمست فى علم آثار الشرق الأوسط، وانكببت على جغرافية صحارى الشام وشبه الجزيرة العربية، ودرست إثنوغرافية البدو، وحفظت الشعر الجاهلى عن ظهر قلب.

ولكن لما كرست نفسى لدراسة علم النجوم بصورته البدائية التى ظهر بها عند الكلديين، عندئذ فقط استطعت إعادة نظم القصيدة الأصلية والتوصل لحل لغز القاف.

مؤشر:
امرئ القيس

يتفق معظم العلماء أن أقدم الشعراء العرب ذوى الصيت هو امرؤ القيس، وليس الغطاش.

وتوجد بين الاثنين فروق مهمة، فقد كان امرؤ القيس ابنا لشيخ قبيلة كندة القونية، بينما لا نعرف أبا للغطاش. ولم يرتبط امرؤ القيس بأى امرأة بعينها، بينما كان الغطاش مُهَوَّسًا بليلى. وكانت روح امرئ القيس هى التى قابلت النبى محمدًا عندما زار الجحيم. أما الغطاش فلم يكن يتحلى بالصبر اللازم[١].

كان امرؤ القيس متهتكا. قيل إن عينيه كانتا كعينى العجل وإنه أغوى بهما نساءً بلا حصر، حتى إنه عندما كان فى القسطنطينية ضاجع ابنة القيصر العفيفة فى داخل القصر. وتحت أنوف

(١) قيل إن المنتحل الفلورنسى دانتى اليجييرى دأب على دراسة الإسكاتولوجية الإسلامية قبل أن يكتب الكوميديا الإلهية، وأنه غير اسم امرئ القيس إلى فيرجيل.

الحراس البيزنطيين. وكان يخترق المخيمات ليلا ليختطف عشيقاته ويحب أن يفاجئ البنات وهن عاريات يغتسلن فى الواحات، وكان امرؤ القيس شغوفا بالجسد والشكل الخارجى.

و فى مطلع معلقته يحصى امرؤ القيس عددا من المواقع المهجورة التى توقف عندها ليبكى من ذكرى امرأة، وليدقق النظر بحثا عن آثار أقدام محتها الريح.

ولكنه لا يذكر اسم المحبوبة التى ألهمته، كما كان فى عرف الشعراء. ويتوهم النقاد أن الأمر يتعلق ببدوية واحدة سكنت فى الأماكن المذكورة واحدا بعد الآخر، ولكن لا، ففى كل موقع من الصحراء كان لامرئ القيس غرام.

وكان أبوه هو من طرده من القبيلة بنفسه عندما اكتشف أن ابنه داعب ابنة عمه تحت ثيابها بعد أن قفز على بعيرها واقتحم هودجها:

فقُلتُ لها سيرى وأرْخى زِمامَهُ ولا تُبعدينى من جنــاك المعللِ

وبهذا طفح الكيل. يبدو أن أباه غضب بسبب بعض الأبيات المتداولة التى تبجح فيها الشاعر بمغامراته الجنسية. وتتصف الأبيات التى يحكى فيها عن تمكنه من امرأة حبلى بينما كانت ترضع طفلها بجمال مقزز.

وفى المطلع الغزلى الذى تحتوى عليه كل القصائد القديمة، ندر أن يزيد الشاعر عن عشرة أبيات، ولكن امرأ القيس تجاوز الأربعين بيتا.

ولكن هذا التضخم الجنسى لم يمنعه من معالجة المواضيع الشعرية التقليدية مثل وصف الفرس، وعقر الناقة، ومشهد القنص، ووصف الصحراء. فبعض هذه الصور بالغة التأثير، مثل حلول الليل الذى يشبهه بفرس أسود يثب ويسقط فوق راكبه.

أما الابتكار الحقيقى لامرئ القيس ففى وصف العاصفة الذى تنتهى به القصيدة، والذى يرى البعض فيه كناية عن نهاية العالم التى تنبأ بها سفر الرؤية. وفى وسط هياج العاصفة، حيث كانت الجبال كرؤوس المغزل، والحيوانات الغارقة مثل جذور البصل المقتلعة، والأشجار المقطوعة مثل الفلفل المسحوق، يدويًا اجمل بيت لامرئ القيس:

وتيماءَ لم يترُك بها جذِع نخلة وَلا أُطُما إلا مَشيدا بجَنْدَلِ

نرى من هذه المقاطع أن امرأ القيس كان من أكثر الناس انفرادية وانزواء بنفسه، ولذلك حاولوا جهدهم بلا جدوى أن يستشفوا ما إذا كانت هناك ولو امرأة واحدة أحبها حبا حقيقيا.

وبحثوا فى المعلقة عن آثار تعينُهم على التعرف على صورة تلك البدوية ذات الشعر الأسود الكثيف المتدلى على ظهرها مثل عذق على نخلة تغص بالتمر، والخصر الدقيق كالحبل، والساقين المشابهتين لقصب البردى، والأصابع التى تتحرك مثل الدود الأبيض أو الأغصان الرفيعة.

أما أنا فأسأل: أى امرأة جميلة فى الصحراء لا ينطبق عليها ذلك الوصف؟

وأعتقد أن أجمل أبيات فى الشعر العالمى هى هذه المنسوبة لامرئ القيس:

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرَضَ أثناء الوشاح المفصَّل
فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها   لدى السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

...

خَرَجْتُ بها أمشى تَجُرّ وَراءَنا   على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

مازلت الشخص الوحيد على ظهر الأرض الذى يشك فى أصالة هذه الأبيات، وأكد بعضهم أن هذا سخط منى ومحاولة للنيل من امرئ القيس مثلما نالوا من الغطاش. هذه مجرد أكاذيب، فأنا أعرف جيدا شخصية امرئ القيس، ولا أظنه كان يسمح بأن تمحى آثار تلك الخطوات النسائية، حتى ولو كان فى ذلك مخاطرة بأن يعثر عليهم أعمام الفتاة. يقال إنه كان ولعا بالشكل الخارجى، ولكن الأحرى هو أنه كان يفضل آثار الجسد الأنثوى فى الرمال على المرأة التى تركت تلك الآثار.

(جـ)

جيم
الحرف الخامس
كرقم: ٣
بالتسلسل: الثالث
أول حرف فى "جمال" و"جنة"

"أحب النساء اللاتى إن خلعن ثيابهن لم يصبحن عرايا"

- امرؤ القيس -

لم تنظر إلى عيون بنى غراب بلطف عندما ترجلت عن بعيرى ونفضت الغبار عن ثوبى الأبيض وطالبت بواجب الكرم الذى عرفته الصحراء. وخرجت النساء من وراء الستائر المصنوعة من الشعر المفتول التى تحجبهن وأسدلن الخمار على وجوههن كأنهن ظبيات تفر من سباع، أما الرجال الجالسون على الحصير فلم يحركوا ساكنا.

- "هبوا أيها العرب! أنا الغطاش اللبؤى أتبع أثر هذه الدابة منذ أحد عشر يوما".

ولكن الحجر لم يكن أكثر منهم صمتا، ولم تجرؤ إلا الريح على إثارة حفيف أرديتهم عندما نفخت بالخيام. وصهلت بعض الأفراس العربية الخالصة التى تكونت منها ثروة غراب.

- "سأدفع أى ثمن لإحداهن!"

وتوجهت إلى المخيم متجاهلا هؤلاء الرجال كأنهم عشب يابس على حافة نهر جاف. ولما اقتربت من إحداهن انتصب لى المثنى، شيخ غراب، وسيفه مشهور فى وجهى قائلا:

- "لا يهتك غريب عرض بنات غراب!"

وذلك لأن عصفة ريح أزاحت خمار امرأة من القبيلة كانت قد خرجت حينذاك من بين أفراس ترضع أمهاراها.

فأنشدت أبياتا فى وصف أفراس غراب وأعرافها السوداء، وشفاهها الغليظة، وأوراكها العريضة. ولكن لم تضاه أى منها جمال الفتاة التى فتنتنى لتوها.

- "يا شيخ غراب، أريد أكثر الأفراس جمالا. تلك التى تربت فى خيمتك".

ابتسم المثنى لأنى أقررت برؤية ابنته، ولكن من خلفنا أرعد أحدهم وفى كلتا يديه سيف:

- "من أى قبيلة هذا اللص الذى يجرؤ على طلب خطيبة ذى السيوف؟"

التفتُّ إليه باحتقار وقلت:

- "أنا الغطاش اللبؤى، وهذا سيفى الأحدب. من ذاقوا حدة طبعنا صاروا رفاتا".

وغرق رده فى صهيل الخيل.

استطراد:
سد مأرب

كثرت الكتب التى تؤكد أن العرب أصلهم من الصحراء، ولكن ذلك غير صحيح، فقبل أن يسكنوا على الرمال المجدبة ويشربوا مياه الآبار المالحة أحيانا، وأحيانا أخرى الحليب فقط لكى يوفروا الماء للإبل، سكن أولئك القوم المدن، ولذلك اختاروا المناطق الأكثر اعتدالا فى جنوب شبه الجزيرة، وتعلموا تغيير مسار الأنهار وبناء السدود.

من الغريب أن القبائل التى انحدرت من هؤلاء المدنيين الميسورين تحولت فى العصور الغابرة إلى بدو نقل، نزحوا إلى الشام والعراق. وتحكى الأسطورة التالية قصة تلك الهجرة.

كان أعظم السدود التى بناها العرب فى مأرب باليمن، وكان يمد المدينة والقرى الممتدة من ساحل البحر الأحمر إلى خليج عمان بالمياه.

وكـان أهـل مـأرب ذوى بطش وثروة، وتفـاوضـوا مع ملوك الأمم الأخرى وتلقوا التـجـار من الهند وفارس ومصـر وفينيقيا والحبشـة وبابل.

ولكن تلك التـجـارة كانت غـريبـة، حيث إن البـضـائع كانت تبـاع وتشـتـرى بالإشـارة فـقط. لم يكن السـبب فى ذلك جـهل الغـربـاء بالعربية، بل عدم استطاعتهم فهم كلام أهل مـأرب الذين كانوا لا يتحدثون إلا بالرموز. اعتبـر هؤلاء أن أى حديث غيـر مجـاز فيه دناءة.

وبالتـالـى إذا أراد أحـدهم أن يتـحـدث عن بعير قـال "سـفينة" أو "كـثيب"، أو "جـرذ" كناية عن "خنجـر"، أو "عـين" بدلا من "واحـة". وأحيانا كانت جملة كاملة مثل "يلزمنى أن أقبل نعلك" تستعمل كناية عن جملة أخرى مثل "أريد كأسا من الخمر".

كـانت بعض هـذه الكنايات واضـحـة، مـثل التـشـابه بين العـين والواحـة، فـمن كليـهـمـا يتـدفق الماء؛ أو بين البـعـير والسـفـينة، لأن البـحـر نوع من الصـحـراء؛ وحتـى بين الجـرذ والخنجـر، لأن أسنان الأول حادة مثل نصل الأخير.

ولكن كثيرا ما كـانت هـذه التشبيهات المتسلسلة مـعقدة، حيث كان من الضرورى، على سبيل المثال، مـعرفة أن خمر مأرب كان يستورد على ظهور الجـمـال، وأن هذه الحـيـوانات كـانت مـصـدر الجلود التى صنعت منها النعـال. وكـان يجب كـذلك أن يكون المرء قـد رأى كيف تحـرك الرياح كثبان الرمال ليدرك تشـابهها بسنام الجـمـال عندمـا تختفى بالتدريج عند الأفق.

وذات يوم ظهر أحد فلاحى مأرب فى وسط المدينة وصاح: "هناك شق فى جدار السد!"

وعلى الفور طعنت امرأة زوجها ظنا منها أن "السد" كناية عن الرجل الممتلئ بالرغبة، وأن "الجدار" يعنى صلابته، وأن "الشق" مجاز واضح عن شىء آخر. وفيما عدا هذه المرأة، لم يأبه أحد بالفلاح.

وفى الواقع لم يكن لكلام الفلاح معنى مفهوم، ولم يستطع أحد أن يجد تفسيرا مرضيا للجملة التى صاح بها أربع أو ثلاث مرات قبل أن يفر من مأرب متجها إلى الشام.

وفى اليوم التالى انهار السد، ومات الكثيرون غرقا، ودمرت المدينة والقرى المحيطة بها، وبدأ معظم الناجين بالنزوح إلى الشمال.

وحاولوا بلا جدوى العثور على صاحب الجملة ذات المعنى الحرفى الخادع الذى ضلل أهل مأرب. ولو أمسكوه لارتكبوا ظلما كبيرا.

ففى توتره ومحاولته اليائسة لإنذار أهل مأرب، نقب الرجل فى مفردات العربية بكاملها عن كنايات لا لبس فيها لمفاهيم "الشق" و"السد"، حتى انتهى به الأمر إلى إغلاق الدائرة فاختار "شق" كناية عن "شق"، و"سد" كناية عن "سد".

(د)

دال
الحرف الثامن
كرقم: ٤
بالتسلسل: الرابع
أول حرف فى "دير" و"دم"

"الشريف لا يخاف"
ـ الشنفرى

كان الشرر الذى انطلق عن صليل سيوف الغطاش وذى السيوف أكثر بريقا من ذلك الذى نتج عن ارتطام حوافر خيول غراب السوداء بصخور الصحراء فى ليلة بلا نجوم. وقد اكتسب ذو السيوف لقبه هذا لقدرته المبهرة على القتال بسيف فى كلتا يديه[١].

---

(١) وهنا يشير الذين ينتقصون من شأنى إلى خطأ: الوصف الصحيح لرجل يحارب بسيفين هو "ذو السيفين"، بالمثنى، وليس "ذو السيوف"، بالجمع. لم أر فائدة من تذكيرهم أن الشعر كثيرا ما يسمح بالانحراف عن قواعد النحو، وخاصة لمراعاة الوزن.

التف رجال قبيلة فى أثوابهم الغامقة وحدقوا النظر بعيون غائمة فى شيخهم وكأنهم صقور تتربص بفأر. فكان تسامح المثنى عجيبا حتى وإن أخذنا فى الاعتبار حق الضيافة الذى لا يسمح بالاقتراب من الحريم، دون عقاب.

ولكن سحر بلاغة الغطاش مكنه من أكثر من ذلك، أى أن ينازع ذا السيوف الرهيب على خطيبته.

وكان نزالهما غريبا، حيث منعت ذى السيوف شهامته من أن يطعن ضيفا داخل حدود القبيلة، فاكتفى بتفادى ضربات الغطاش. ومع ذلك اعترض الغطاش قائلا:

- "هذا نزال غير متكافئ. يحارب هو بسيفين وأنا بسيف".

فبدأ ذو السيوف إذن بالصد عن نفسه بسيف واحد فى يسراه. ولكن بعد حين آخر اعترض الشاعر مرة أخرى:

- "هذا نزال غير متكافئ. أحارب بيمناى ويحارب بيسراه".

فنقل ذو السيوف سيفه إلى اليد اليمنى وواصل الدفاع عن نفسه.

وكان بإمكان ذى السيوف الإطاحة بالغطاش أكثر من مرة، ولكنه لم يحاول قط أن يُودِى به. ولعله كان يسعى لنصر مضاعف، أى الاحتفاظ بخطيبته دون انتهاك حق الضيافة.

ولكن الرياح لم تهدأ. ولابد أن الغطاش لاحظ أنها بدأت تعصف بشدة وتثير المزيد من الرمال، ولهذا أدار ظهره لها، وركع على ركبتيه، وسقط بمرفقيه وجبهته على الأرض.

ظن ذو السيوف أن الغطاش سقط من الإجهاد مغلوبا، فمد له يد المضيف. ولكن ما حدث بعد ذلك يسوده الغموض. فقد انتصب ذو السيوف بغتة ليتجنب هجوم الغطاش المفاجئ دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه لأنه ألقى بسيفه ليقى بيديه عينيه من الرمال التى نثرتها إما الرياح وإما يد الشاعر الغطاش.

مـؤشــر:
عنتــرة

من السهل الخلط بين الشخصيات الأسطورية للغطاش وعنترة. كان عنترة أعظم المحاربين الأبطال، وكان الغطاش أعظم الشعراء. وعند العرب كان كل بطل شاعرًا وكل شاعر بطلاً.

ولكن هناك ولا شك فروقا بين الاثنين. كان الغطاش ولعا بالأفراس، بينما أحب عنترة حصانا واحدا.

كانت أم عنترة جارية حبشية، وأبقاه أبوه فى منزلة الرقيق. ولما اندلع القتال بين أكبر عشيرتين فى القبيلة بسبب خلاف على نتيجة سباق للخيل، طلب منه أبوه أن يحارب.

ولكن عنترة فيما يبدو رفض قائلا: إن العبيد يعنون بالإبل فقط، ففاجأه أبوه بأن أعتقه. وهكذا اضطر ابن الحبشية أن يقاتل فى تلك المعركة وفى كل المعارك التى تلتها، وكان كالأسد فى قتاله.

يرى المؤرخون فى موقف عنترة حيلة رمت إلى إجبار أبيه على الاعتراف به وإدخاله فى نسبه. ولكنى لا أتفق معهم. فقد كان عنترة يعرف أن أحدا لن يذهب للقتال دونه، ولكن كل ما أراده هو أن يُجنب الخيل مخاطر القتال، ويظهر ولعه الشديد بالحيوان فى أكثر المشاهد دموية فى معلقته:

لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعهُم يتذامرونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مذَمّم
يدعون عنترَ والرِّماحُ كأنها أشطانُ بئر فى لبانِ الأدهم
ما زلتُ أرميهمْ بثغرةَ نحره ولبانِهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدّم
فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلىّ بعَبْرةٍ وَتَحَمْحُم
لَو كانَ يَدرى ما المُحاوَرَةُ اشتَكى وَلَكانَ لَو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمى

قلت إن عنترة أحب حصانا واحدا فقط، ولكن الأسطورة تحكى أيضا عن حبه لابنة عمه «عبلة» التى انتمت للعشيرة المعادية، حسب قول البعض. وقال آخرون إن عمه رفض أن يزوجها له لأنه لم يرغب فى أحفاد داكنى البشرة.

وفى رأيى أن عبلة لم تحب عنترة قط، كما أشك فى أنه أحبها، ولكن كانت بينهما جاذبية كتلك التى تشد الحيوانات إلى الأجمل والأقوى من الجنس الآخر. وكلما تحدث عن هذه المحبوبة المزعومة ظهرت مطيته:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ منْ متردَّم أم هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهمِ
يا دارَ عَبلَةَ بالجَواءِ تَكَلَّمى وَعَمى صَباحًا دارَ عَبلَةَ وَاسلَمى
فَوَقَفتُ فيها ناقَتى وَكَأَنَّها فَدَنٌ لأَقضِىَ حاجَةَ المُتَلَوِّمِ

وكما فى الكثير من الآداب الأخرى، تدل صورة برج القصر أو القلعة المنيعة على الحب المستحيل. وكلما تحدث بوضوح عن ابنة عمه لَمَّح عن مشاعر ملتبسة وغير واضحة، كما فى قوله:

عُلِّقتُها عَرَضًا وَأَقتُلُ قَومَها

وفى مقطع آخر معروف يشبه عنترة ابتسامة عبلة بنصل السيف اللامع، وعذابة قبلتها بسهل خصب لم يلطخه روث البهائم وتعلوه سحب ربيعية يترك قطرها بريكات صغيرة مثل الدراهم الفضية.

وهنا ارتكب الشارحون خطأ: هذه الصورة الأخيرة للغطاش، لأن عنترة لا يصنع الدراهم الفضية إلا من قطرات عرق حصانه.

لكن حب الخيل من حب الحرب، وكان عنترة راويا رائعا للمعارك. وكان يقتل أعداءه بحز الوداجى بطريقة تجعله أشبه بالشفة الشرماء، ثم يترك جثثهم لتكون مرشدا لبنات آوى. وأذكر أن عنترة كانت له شفة شرماء، فكأنه كان يضع ختمه على أجساد أعدائه.

قلت إنه شبه ابتسامة عبلة بنصل السيف. ومن الغريب أن شراسة العدو أوحت إليه بنفس التشبيه:

لما رآنى قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ   أبدى نواجذهُ لغير تبسُّم

من غير المعقول بالمرة، إن لم يكن من المستحيل، أن يحب رجل يفتخر بنفسه مثل عنترة امرأة ازدرت به أو انتمت لأعدائه. وبدلا من حب لا منال له، قضى عنترة حياته ينشد النهاية الحتمية فى ساحة القتال.

ومات عنترة من سهم أصابه فى أسفل العمود الفقرى. كان راكبا حصانه الأبجر ومتأهبا للنزول إلى الوادى والانقضاض على العشيرة المعادية. وعاد الرامى الذى كان مختبئا يركض ليبلغ خبر موت البطل، ولكن الأبجر لبث يعدو فى نفس الاتجاه.

ورأى الأعداء عنترة والأبجر ففروا، ولكن بعد أن قتلوا الرامى الذى حمل إليهم خبرا ظنوه كاذبا[١].

وظل جسد عنترة لفترة طويلة أسير سرجه على ظهر الأبجر هائما فى الصحراء ومرهبا لأعدائه، حتى تحلل ووقع فى آخر الأمر. ولا يعرف أحد إن كان قد دفن أم لا، ولكن الأبجر استمر فى العدو على رمال الصحراء حتى يومنا هذا.

وذات مرة رأيت ذلك الفرس الذى لا يضاهى جماله أى بيت لعنترة.

---

(١) وصل هذا المشهد إلى إسبانيا وأثر تأثيرا بالغا فى رواة الملاحم الذين حكوا قصة السيد كامبيادور.

(هـ)
هاء
الحرف السادس والعشرون
كرقم: ٥
بالتسلسل: الخامس
أول حرف فى "هوى" و"هجرة"

"ليست كل الأرقام مضاعف الواحد"

ـ يعربُ ـ

بدأت المغامرة التى أدت بالغطاش إلى اكتشاف لغز القاف وَحَلِّهِ عندما نهض الشيخ غراب فجأة وانطلق خارجا من مجلس القبيلة. أزاح من كانوا فى طريقه جانبًا، ولم يتوقف حتى بلغ الخيمة العالية ذات الستار الأحمر والشُرّابات السوداء.

ـ "أجيبى يا صباح! أيهما أقل استحقاقا بك؟"

عرض الغطاش مائتين وعشرين بعيرًا مهرًا يدفع فى مكة فى موسم الحج، فلوح أحد أعمام ذى السيوف بذراعيه غضبا وتجاسر

على ذكر الاتفاق المبرم مسبقا، فرفع الشيخ يديه إلى حزامه وقال:

- "صباح اختارت، انتصر الغريب فى نزال عادل، كما لم يبق فى غراب شاعر."

حدقت عيون غراب فى المثنى بصرامة، وأما عيون ذى السيوف فلم يكن بالإمكان وصفها، حيث كان يرقد وتغطيه الضمادات، لأن الغطاش جرحه عندما تراجع وعيناه ممتلئتان بالرمال. وندم ذو السيوف على امتناعه عن قتل الضيف.

ثم فتحت الخيمة وعبقت منها رائحة المسك النفاذة. وخرجت صباح لتقابل خطيبها مرتدية ثوبا حريريا والكثير من الحُلِى، بعد أن استحمت استحمام الزفاف، وهبت رياح الصحراء بقوة تجاهها فانفك خمارها مرة أخرى وجسم ثوبها أشكالا مستديرة تضاهى فى جمالها حروف الخطاطين.

كان جدى نجيب يحب بالخصوص الأبيات التى قالها الغطاش فى هذه المناسبة:

- "جسدها قائم على جذع شجرتين من سدر لبنان مثل تل يعلوه عشب كثيف. ومن استلقى على وجهه فوق هذا العشب رأى وطأة قدم بعير واحدة مستديرة فى سهل أبيض متموج، فى آخره تلان كبيران يخفقان."

لعلى دفعتكم للاعتقاد أن الغطاش تحدث هنا عن صباح، وأظن أن أهل غراب وقعوا فى نفس الخطأ.

بيد أن الغطاش كان يصدح وصفا لهيئة ليلى المنتقبة التى كانت تمشى وراء أختها صباح لتمشط شعرها عندما نقشت الريح جسدها هى الأخرى.

استطراد:
ضياع سميرة

ربط جنوب شبه الجزيرة العربية بالهلال الخصيب طريقان رئيسيان كانت تسلكهما منذ عهد قديم القوافل التى حملت البخور والمر والأحجار الكريمة وثروات الحبشة وروائع الهند.

وازى أحد هذين الطريقين ساحل البحر الأحمر من اليمن إلى سوريا وفلسطين، مرورا بمكة، أما الآخر فحاذى شواطئ الخليج العربى من عمان فى الجنوب إلى العراق، ثم اتبع مسار الفرات إلى أراضى الآشوريين القديمة.

ومنذ قديم الأزل، سلك معظم العرب الأوائل فى هجرتهم من اليمن هذا الطريق أو ذاك وفرضوا لغتهم على قبائل الشمال التى تزاوجوا معها.

وضل الكثيرون فى هذه المسيرة، مما تولد عنه حكايات وأساطير عن قبائل تائهة ومدن غرقت فى الرمال.

يحكى أن إحدى صحراوات الجزيرة الأكثر جدبا واتساعا آوت قبيلة تائهة قيل إنها من سلالة بلقيس ملكة سبأ، وقيل إن رجالها كانوا شرساء ونساءَهَا حسناوات، وكانت تحكمهم امرأة تدعى «سميرة» قيل إن لها أجمل وجه فى الخليقة، على الرغم من أن أحدا لم يره قط.

ولاحق العرب من جميع أنحاء الجزيرة نساء تلك القبيلة، وأكد المحظوظون الذين استطاعوا أن يتأملوهن أن جمالهن كان فائقا وغير عادى لدرجة لم يكن أحد يتخيل وجودها لا فى الجزيرة ولا فى العالم كله.

وأحيانا كان الناس يلاقونهن عندما يخرجن من الصحراء من وقت لآخر ويقترين من أراض أقل جدبا لسرقة عنز أو بعير. وفى أحيان أخرى كان يترصد لهن بعض البدو ليخطفوهن، ولكنهم كانوا يلقون حتفهم جميعا على أيدى رجال القبيلة الأشداء.

وذات مرة هجمت جماعة من ستة أو سبعة رجال على بضع خيام لقبيلة سميرة نصبت فى ناحية من أراضى حضرموت الخصبة، لكنهم أُسروا وقيدوا من أعناقهم بعضهم ببعض مثل حبات فى عقد وسُحبوا حتى مثلوا فى حضرة سميرة، أجمل النساء التى لم يتوقعوا رؤيتها فى ذلك المكان قريبا من حافة الصحراء.

وكان اضطرابهم واضحا عندما مثلوا أمامها، فقد فقدوا حسهم بالمكان وقدرتهم على المشى باتزان أو تفادى الارتطام بعضهم ببعض، وكأن سحرا أو بلاء خفيا استحوذ عليهم.

وفى هذه الحالة التى يرثى لها، قادهم رجال القبيلة لعدة فراسخ فى داخل الصحراء وتركوهم وحدهم.

ولا أحد يدرى إن كان ما حدث بعد ذلك صدفة أو لأن القبيلة لم تبتعد كثيرا. واقع الحال أن أحد هؤلاء الأسرى ظهر مرة أخرى على حافة الصحراء المجدبة التى لم تسكنها إلا قبيلة سميرة، ثم ما لبث أن مات من العطش.

ويبدو أن القصة التى لا بد أنه حكاها قد شجعت الآخرين على المزيد من المضايقات لقبيلة سميرة، فحاصروها فى منطقة جافة صعبة الاجتياز.

وذات يوم ظهر فى أحد أسواق قطر ثلاثة رجال يسوقون بعيرا تركبه امرأة منتقبة تلبس ثوبا فارسيا غطاها من الرقبة إلى القدمين، فلم يظهر منها إلا يديها.

وقال أحدهم: "إنها سميرة".

ولاحظ القطريون أن خاطفى سميرة كانوا دائخين لا يعون ما حولهم، ويتعثرون فى خطاهم وترتطم رؤوسهم برؤوس البعض.

وعندئذ انقطع زمام البعير أو انفلت، واستحثته سميرة بالسوط فَعَدَا باتجاه الصحراء واختفت سميرة إلى الأبد.

وقيل فيما بعد إن الرجال الثلاثة كانوا عُمْيًا، ولكن لا أحد يدرى إن كانوا قد فقدوا بصرهم قبل رؤية سميرة أو بعدها. ولا أحد يدرى متى عمدت هى إلى ارتداء النقاب.

(و)
واو
الحرف السابع والعشرون
كرقم : ٦
بالتسلسل : السادس
أول حرف فى "وحج" و"ودع"

"هل من مفخرة أعظم من أن تكون أضحوكة للضباع؟"

- عمرو بن كلثوم -

- "يا لبؤى، خذ «صباح» على بعيرك وارحل. لن يبقى الأعداء أحياء طويلا بين أبناء غراب".

هكذا ودعونى، ثم أردفوا «صباح» خلفى. مئة وعشرة لعنات على من لا يحترم أيام الضيافة الثلاثة، واللعنة مئة وعشرة فى إحدى عشرة مرة على من يفضل حياة الذليل على الموت بحد سيفى.

بحثت عن محل اللبؤة اثنين وعشرين يومًا لم أتوقف خلالها عن الالتفات إلى الخلف لرؤية وجه المرأة التى أزاح النسيم خمارها كلما هب. ضاجعتها فى الصحراء بين عواء بنات آوى وعويل الضباع، ولكنى لم أر فى مُحياها شيئا لم يلفه الغموض.

ذلك لأنى فكرت فى ليلى التى لم أرها بلا خمار، بقرة بعينين سوداوين مثل بِركَتَين من القار نبعتا من بطن الأرض.

- "ائتوا بمئتين وعشرين بعيرًا إلى مكة فى شهر الحج وادفعوها لقبيلة غراب مهرا لهذه المرأة التى أنبذها، وزيدوها أربعمائة وأربعين بعيرًا كمهرًا للمرأة التى سأذهب فى طلبها".

هذا ما قلته فى مجلس قبيلة اللبؤة ودفعت صباح إلى وسطهم، ورحلت فى الصحراء غير آبهٍ لناقتى.

سرقت ماء الآبار المالحة ولم أمر بأية قوافل لأنهبها. كنت محاطا بكثبان الرمال، ولكن هلال القمر وضع فى طريقى متشردين إن لم يسقونى لسرقونى.

- "ترجل عن بعيرك يا عربى، فحتى الصعاليك يعرفون الكرم".

توقفنا تحت السماء ملتفين ببرد قديمة ومنتنة. كان الخبز عفنا، ونظرت إلى ناقتى المنهكة التى لم تشرب، ولاحظت بجانبها أخرى أصغر منها سنا، ذات أوراك جميلة ومستديرة، تحمل قربتين ممتلئتين بالماء العكر، وضرعها أيضا ممتلئ.

اقتدت تلك الناقة خفية وأخذت معى باقى الزاد بينما نام الآخرون.

ولكن الناقة تعثرت على حجر فأيقظ ضجيج الماء المرتج فى القرب زمرة الصعاليك، وأمسكوا بى قبل أن أنشب قوسى وجذبنى شيخهم من شعرى قائلا:

- "شىء عجيب: كل ناكرى الجميل الذين عرفتهم تتشابه أعناقهم. ائتنى بسيفى يا عمر!"

ولكن موجة من الرمال أغرقت الليل فى الظلمة، واجتاحت الرياح القوية المخيم وأطفأت ناره. امتلأت عينى بالرمال ففقدت الرؤية، ومع ذلك قفزت على الناقة وعصبت عينيها بعمامتى.

لا أدرى إن كانوا اتبعونى، ولكن بين زمزمة الرعد دوى خلفى صوت أجوف رهيب كأنما انبثق من قاع الزمن:

- "شاعر اللبؤة على حق. هذه الناقة حفيدة أخرى سرقها عمر من جليلة أم الغطاش".

مـؤشــر :
النابغـة

لا يوجد فى الطبيعة مخلوقان متساويان، ومن المعروف منذ أمد طويل أن ذلك أيضا شأن التوأم، ولكن ذلك لا يمنع أن تتجدد فكرة التطابق التام كلما ظهرت قصة جديدة عن شخص التقى "ببديله"، أى من شابهه طبق الأصل، ولكن تلك القصص ليست إلا أكاذيب دنيئة يجب أن يُمنع تداولها.

وعلى العكس من ذلك، لا يوجد فى الحقيقة لكل كائن إلا الضد، أو النقيض، أو التوأم المعاكس. كان هذا حال الأميرين العربيين عمرو والنعمان.

كان أحدهم حليفا للروم والآخر للفرس، وكان أحدهما نحيفا والآخر بدينا. وكانت عيون الأول عسلية وعيون الثانى سوداء كالليل، وكانا قبيحين، غير أن ذلك كان بسبب عيب فى أنف أحدهم وفى أذنى الآخر. وكان سبب شهرتهما امتداح النابغة لكليهما.

لم ينحدر النابغة من سلالة شعراء. اعتنق المسيحية وذهب ليعيش فى بلاط النعمان، حليف الفرس، وتعلم هناك نظم قصائد المديح التى أعطته مكانة بين عظماء الشعر القديم. ولما ألقى أول بيت من معلقته غمره النعمان بفضله:

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ   أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ

وأثر فى الأمير أيضا وصف البعير ذى الأسنان الحادة كالشص فذكره بمشهد ثور متوحش من السهول بطنه مقوس كالسيف الأحدب ينقض بشراسة على كلاب الصيد، ثم يدور ويلتوى رافعا أحدهم على قرنه مثل قطعة لحم تشوى على سيخ.

شبه النابغة النعمان ببعيره، ثم بذلك الثور، ولم يكن أى ملك من أسلاف النعمان قد حظى بمديح يعادل ذلك فى بلاغته، فأمره النابغة أن يمدح كل فرد من أفراد عشيرته.

وصفت القصيدة التى نظمها عن متجردة ـ امرأة النعمان ـ اللحظة التى خرجت فيها من خيمتها كظبية ذات وجه مشرق وجذع كنخلة تتمايل فوق أشجار غابة. كما شبهها بالشمس عند الفجر، وبلؤلؤة، وبتمثال من المرمر انتصب على قاعدة حجرية.

بل تجرأ على إضافة مشهد تغطى فيه وجهها خجلا بإحدى يديها، بينما تمتد أصابع اليد الأخرى كبراعم اللوتس لتمسك بخمارها الحريرى المنحل، فتنبسط ضفائرها السوداء وتتموج كفروع الكرم، وتتضرع عيناها كعيون الأسرى.

لم يبد الغضب على النعمان الأبىّ فى أول الأمر، ولكن بدأت الناس تتحدث عن التفاصيل الكثيرة التى جاء بها النابغة فى قصيدته، ولم يلبث أن ساد الرأى أنه لم يكن ليستطيع أن يصف بتلك الدقة ما لم يكن قد رآه أو جربه بنفسه. كان فى هذه النظرية المنطقية خراب حال النابغة، لأن النعمان تذكر كناية الثور، ولأنه حسب نفسه كالثور، قدر أيضا أن النابغة رأى جمال متجردة وهى عارية.

وطرد النعمان النابغة فذهب إلى بلاط عمرو، حليف الروم. ولم تختلف القصة، فلم يلبث النابغة أن فاز برضا الأمير، وقال فى مدحه قصيدة لا تقل فى شهرتها عن الأخرى التى مدح فيها النعمان.

وفيها تتقدم جيوش عمرو كتيبة من النسور تفتح الطريق للمحاربين القدماء الذين تربوا مثل كلاب الصيد على سفك الدماء بلا تردد. وكانت تلك النسور تجتمع حول الميدان مثل النسوة المكتسية بالسواد انتظارا لتساقط الأعداء أمام رجال القبيلة الذين انبعجت سيوفهم من شدة القتال.

ولكن قصائد النابغة القديمة شاعت بما فيها قصيدته عن متجردة ـ امرأة النعمان ـ فلم تلبث أن انتشرت إشاعات عن النابغة وامرأة عمرو التى ظن الناس أنها المقصودة فى القصيدة.

ولكن ثقة عمرو بامرأته كانت عظيمة، فاكتفى فقط بطرد الشاعر. وكان هو الآخر قد سمع أن النابغة لم يكن ليستطيع أن

يصف ما لم يره، ولذلك استنتج أن قصائده لا تحتوى إلا على الأكاذيب. وأن النابغة كان ينسج أبياته من الوهم. وبالتالى فإن كانت امرأته مخلصة له حقا وأن النابغة كذب فى وصفه لها. فلا بد أنه كذب أيضا فى وصفه هو، وأنه بذلك لا يستحق كل هذا المجد الذى نسبه النابغه إليه، بل وإن عيوبه أكثر من الانبعاجات فى نصل سيفه.

(ز)
زاى
الحرف السابع والعشرون
كرقم: ٧
بالتسلسل: السابع
أول حرف فى "زان" و"زكى"

"المغفلون ثلاثة: من لا يعرف أنه لا يعرف، ومن لا يعرف أنه يعرف، ومن يعرف أنه لا يعرف"

- لبيد -

- "يا أستاذ موسى، لا يوجد فى الأساطير العربية، ولا فى الكتب القديمة، ولا فى مؤلفات البيرونى، ولا فى فهرس ابن النديم، ولا فى أعمال شفيق معلوف - أكبر علامة فى هذا المجال فى العصر الحديث - أى ذكر لعفريت اسمه جَدّه، ولا لعفريت أعمى أو أحول يعيش فى الماضى ويعود إلى الحاضر فى زوبعة ترابية ليتفوه بشهادات لا يمكن البرهنة عليها. ولا يوجد حتى اشتقاق لاسمه أو

أى جذر مقبول له فى أى من اللغات السامية. أخشى أن خيالك شطح بك بعيدا جدا".

كان الدكتور يحيى من الذين ينفون صحة «قافية القاف»، أو أحد "اللا أصليين"، كما أصبحوا يعرفون. ووصل به الأمر إلى عرض المشكلة فى مؤتمر للمختصين بالأدب العربى. وكنت للأسف أعتمد عليه فى الحصول على شهادتى فى الأدب الجاهلى.

- "يا دكتور يحيى، هل راجعت كتاب دير المغارة؟

أجاب بالنفى، كما توقعت. فوضحت له، وأنا أحاول التظاهر بالتواضع، أنه كتاب تاريخ سيريانى موجود فى دير معروف فى نواحى مدينة البتراء، وقد ضاع معظمه إلا بعض الصفحات، وأنه المرجع الوحيد الذى يرد فيه ذكر شخصية جَدَه الأسطورية.

وفقا للمؤلف المجهول، كان جَدَه عفريتا ضخما له صوت راعد وإحدى عينيه عمياء. ولما شرع الإسكندر الأكبر فى غزو الشرق، كان جَدَه أحد الكائنات الأسطورية التى قاومت زحف المقدونى الهائل.

خسر جَدَه المعركة فى نزال فردى مع الإسكندر بذاته الذى طعنه فى وجهه واقتلع عينه بسيفه.

ولكن جَدَه لم ينهزم، فقد حول نفسه فجأة لدخان وارتفع إلى قمة جبل القاف بانتظار أن يعود فى زمن لاحق ليستعيد عينه. ويخاف البدو تحديدًا من زوابع الرمال التى تهب من تخوم الأرض، لأن جَدَه قد يكون فى وسطها. فمن يستطيع أن يشكك فى شهادة من جاء من الماضى؟

- "إن كان ما تقوله صحيحا فقل لى فى أى مكتبة أستطيع العثور على ذلك الكتاب".

- "آسف جدا، ولكن يبدو أن حضرتك لم تتمكن من تصفح جميع المخطوطات الموجودة هنا فى مكتبة الجامعة".

نزلنا معا إلى قسم الوثائق النادرة، حيث أتتنا أمينة المكتبة ببطاقة ملطخة عليها العنوان السيريانى كتاب دير المغارة، وكان التقييد حسب جميع قواعد الفهرسة المعروفة. كان اسمى هو الوحيد الموقع على البطاقة، مما يثبت أن أحدا غيرى لم يكن قد اطلع على الكتاب.

ولم أستطع أن أخفى سخطى عندما وجدنا أن ذلك المخطوط - ذلك الكتاب القديم النادر - لم يكن على الرف فى مكانه المحدد على البطاقة، ونقب الموظفون فى كل مكان بلا فائدة.

- "الجامعات اللبنانية مشهورة بالجدية يا دكتور يحيى".

احتدم الرجل غيظا وقال:

- "سوف أطلب تحقيقا فى هذه البطاقة يا أستاذ موسى! أشم رائحة تدليس! وأكثر من ذلك: شكلك مضحك ببذلتك الإيطالية وغطاء الرأس البدوى هذا!"

كنت على وشك أن أغمغم شيئا عن الجذور الثقافية، ولكنه كان قد صفق الباب من خلفه.

وفى اليوم التالى ركبت الطائرة المتجهة إلى ساو باولو، ولا أعرف حتى الآن نتيجة التحقيق.

استطراد:
المرآتان

كان العرب أول من اعتنقوا المسيحية، وإن ظلت الكثير من قبائلهم على وثنيتها، وكان بين أوائل الشهداء المسيحيين العديد من العرب. كما كان فيليب أول إمبراطور رومانى يقبل بالتعميد، وكانت كنايته "العربى" - وهى كناية مناسبة جدا. وشارك أساقفة عرب فى المجالس التى ناقشت المسائل البيزنطية الشهيرة، وكانوا منحازين إلى الجانب الأرثوذكسى، كما أن أقدم منقوشات معروفة باللغة العربية موجودة فى كنائس مسيحية.

وفى الحقيقة كانت قبائل عربية تسكن فى الصحراء أول من تصور فكرة المسيحية قبل المسيح نفسه بقرنين.

لا أحد يعرف بالتحديد متى انتشرت بين الشعوب السامية عادة التضحية بالابن الأكبر كقربان أو من أجل استرضاء الإله الغاضب. فمثلا لا أحد يجهل قصة إبراهيم وإسحاق.

ولم يختلف الأمر عند البدو؛ فعندما أصاب المرض والفقر رجلا يدعى «أديب» كان يشتغل بصنع المرايا، طلب منه وسيط الوحى دم ابنه الأكبر.

ضحك أديب ثم بكى، فلم يكن له إلا البنات، وقدر أن الإله لم يطلب منه المستحيل إلا لأنه لا يريد إنقاذه، فانسحب إلى الصحراء يائسا ليلاقى الموت.

أتته الفكرة عندما وقف أمام مرآه من صنعه وأومأ برأسه إشفاقا على نفسه. ومع أنه تعامل مع المرايا لسنوات طوال، لم يلاحظ حتى تلك اللحظة أن الصورة المنعكسة فى المرآة عكس المنظر الحقيقى، حيث يظهر الجانب الأيمن للوجه على الجانب الأيمن فى المرآة، والعكس بالعكس. لذلك ينبغى وجود مرآة ثانية مقابل الأولى للحصول على انعكاس مضبوط للصورة الأصلية، أى فى الواقع انعكاسان.

وهكذا توصل أديب للفكرة التالية: بما أن الإله طالبنى بابنى الأكبر، بإمكانى مراضاته بابنتى الصغرى.

وهذا ما كان، وعاش أديب وأثرى، وانتشر النبأ بسرعة، وباتت جميع القبائل تفضل التضحية بأصغر البنات. أدان القرآن هذه العادة، مما يبرهن على أنها استمرت حتى القرن السابع.

ولكن التأمل فى مسألة الانعكاس المزدوج لم يتوقف، فكان هناك من استعملوه ولو بقياس خاطئ فى بعض الأحيان، كوضع الزوجة الأولى وحتى العديل أو ابنة الأخ محل الابنة الصغرى.

ومع مـرور الوقت، صـارت المناقـشـات فـى هذا الموضـوع نـظرية وحسب، واقتـرح علمـاء الصـحـراء قلب المعادلة بطريقـة جـديدة: إذا كانت، فى بداية الأمر، حياة الأب تساوى موت الابن (حسب فرضية الانعكاس المزدوج)، فإن حياة الإنسان بشكل عام تعادل موت الإله.

وفى الديانة الإغـريقـيـة، كـان هذا هو الدافع الأكبـر وراء عبـادة أدونيس (وهو إله يموت). ولكن هذا أمر لا يهم.

وفى الواقع إن مبـادئ العقـيـدة تأسست هـنا: إذا كـان من الممكن تعـريف الإلـه على أنه أب سمـاوى، فـإن مـوت الأب السـمـاوى يعـادل موت الابن البشرى. وإذا سـفك دم ذلك الابن، فلن يستطيع أحد أن يسكب دم أمه ـ أى أن الأم عذراء.

وعلى مدار مئتى سـنة، تجول البدو بين الواحـات والقـرى والمدن بحـثـا عن ابن الله البـشـرى الذى ولدته عـذراء. لم تكن صـدفـة أن ثلاثة أمـراء من العـرب (أطلقت عليهم فيما بعـد التسمية الخاطئة بالمجوس) تعرفوا على وليد بهذه الصفات.

ومع ذلك هنـاك من يدعـى أن هـذا دجل، وأنـه لا تـوجـــد أدلة قـاطعة على نسب الطفل، وأن المرايا يمكن أن تدار فـى اتجاه آخـر.

(ح)
حاء
الحرف السادس
كرقم: ٨
بالتسلسل: الثامن
أول حرف فى "حب" و"حجاب"

"احترام الأعداء من تأليه الموتى"
- عنترة

يوثق كتاب دير المغارة آخر مسيرة لقبيلة المثنى من سهوب الشام إلى تخوم شبه الجزيرة العربية، حيث لاقت مصيرها. عندما وقعت هذه الأحداث فى منتصف القرن الخامس على الأرجح، كانت معظم قبائل الشمال قد اعتنقت المسيحية، على خلاف غراب وبعض القبائل الأخرى التى تمسكت بالوثنية.

وكان هناك عداء وثأر بين غراب وقبيلة صالح الأرثوذكسية القوية التى تمتعت بمؤازرة القسطنطينية.

يحكى الكتاب أن ذا السيوف، عندما غزى أراضى الأعداء لسرقة المياه، كمن لاثنين من أبناء بلبل شيخ قبيلة صالح، وقتلهما معا. وردا على ذلك، فهجم على خيام غراب فرسان من صالح بقيادة الشيخ ذاته.

فوجئت غراب بالهجوم المباغت وخسروا المعركة. ومن شدة غضبه اندفع بلبل وفى يده سيف فارسى رهيب باتجاه المثنى الذى كان يحارب راجلا وشب فرسه فوقه، ولكن قبل أن يَهْوى عليه بسيفه التقط شيخ غراب رمحا من الأرض وطعن به الفرس فى بطنه طعنة خزقت بلبلاً.

أصاب الفزع صَالحًا وانسحبوا، والتقطت غراب جثة الشيخ المهزوم ودفعت به لاثنين من عبيد المثنى العارفين بالتحنيط والذين كانوا قد أُسروا فى صحراء مصر.

وكان من عادة غراب أن يحنطوا جثث أعدائهم ويحفظوها فى خيمة شيخهم.

لكن المثنى لم يستطع الصمود أمام غضب صالح التى استعانت بحلفائها كلب وعذرة وتنوخ وبهراء وطيئ وغسان وجشام. وبدأت غراب هروبها إلى الجنوب، آخذين معهم جثة بلبل المحنطة.

نقب فرسان صالح فى الصحراء بحثا عن غراب حتى أتوا على أطلالها، وهناك التقوا بالغطاش بعد أن أنقذته شهادة جَدَه من الصعاليك.

كان الشاعر جالسا القرفصاء بجوار ناقته، يزيح بيديه برفق طبقة من الرمال الدقيقة فى محاولة للكشف عن آثار أقدام ليلى. وكاد رجال صالح أن يتصرفوا بلا شفقة، لو لم تكن اللبؤة قبيلة مسيحية مثلهم. وذهب الغطاش فى صحبتهم.

ودخلوا صحراء السراب الخطرة. لم تكن هذه صحراء عادية، فبدلا من أن يرى الناظر فيها ماءً حيث لا يوجد إلا الرمال، كان البدو يرون رمالا حيث يوجد الماء فيواصلون سيرهم بلا توقف حتى يموتوا من العطش.

وعندما وصل أبناء صالح إلى مكان لم يعرفوا فيه أى طريق يسلكون، رأوا خيطا معوجا من الضباب ظنوا أنه دخان، ولكن الغطاش لاحظ الجزء الأعلى من غطاء رأس مدفون فى الرمال، ودله ذلك على جثة راح بعض لحمها وبها علامات أنياب كلبية واضحة.

وقال رجل من صالح: "حيثما يوجد دخان يوجد البشر. هذا جسد رجل مات من العطش ونالت منه الضباع أو بنات آوى".

لكن الشاعر فضل أن يقرأ العلامات الموجودة على جسد الميت: شقان عميقان متوازيان على جانبى الصدر.

مؤشـــر:
ابن الأبـرص

كـان عـبـيـد الأسـطورى، المعـروف أيضـا بابن الأبرص، أصـغـر الشـعـراء الذين اعـتـبـرت قـصـائدهم من أفـضل أشـعـار الـعـصـر الجاهلى. وكان أيضا ولا شك أكثر هؤلاء الشعراء تعاسة.

ولد عـبـيـد (بفتـح العـين أو ضـمـهـا) غنيـا، ولكنه عـزل فى سن مبكرة عن والديه اللذين أصـابهمـا البـرص وذهبـا للعـيش بمفردهمـا فى مـسـتـعـمـرة للمـجـذومين فى ضـواحـى بصـرى. ومن هنا كـانت تسميته بابن الأبـرص.

وكـأن هذه النكبـة الأولى لم تكف، يبـدو أن عُـبَـيْـدًا سـكـر سـكرًا شـديدًا فى ليلة قمار وشـراهة، ثم ذهب فـرقد مع أخته التى حبلت.

وتغـاضـى أعـمـامـه عن السـفـاح (فـقـد كـان ابن الأبـرص شـاعـرا عظيـمـا، كـمـا أن أخـتـه قـالت إنهـا كـانت نائمـة ولم تعـى بشـىء)،

وأغدقوا عليه بالمال والامتيازات. غير أن الحادثة أثرت فيه تأثيرا بالغا فقرر بعدها أن يتجنب ملذات الحياة وخيراتها، وأن يعيش متسولا مثل أبويه المجذومين.

وتجول من مكان لمكان عائشا على كرم القبائل حتى وصل مدينة الحيرة الشهيرة فى جنوب العراق.

وفى ذلك الوقت كان ملك الحيرة هو منذر الذى عرف عنه الغدر، وكان من قبيلة مسيحية، ولكن فهمه الشخصى للدين قاده لأن يكرس فى كل عام يوما للخير ويوما للشر، وكان أول غريب يراه فى أحد هذين اليومين يتلقى منه إما القطع الذهبية وأمة عذراء، وإما فراء ابن عرس أسود وحكما بالإعدام.

ولما وَصَلَ عبيد إلى الحيرة فى الفجر وجد المدينة مهجورة عن آخرها. وعندما سمع صياح الديك أطل رجل بوجهه من باب القصر ونظر إليه.

لم يكن ذلك الرجل إلا مُنْذِرًا، وكان اليوم هو المكرس للشر. وتلقى الشاعر فروة ابن عرس وأمضى اليوم بكامله فى انتظار أن يقيدوه إلى المسلة التى ترمز للصليب المقلوب ويقتلوه.

تعد قصيدة عبيد أكثر المعلقات رصانة وكآبة وتشاؤما. وفيها نقطة تشابه مع معلقة الغطاش، ألا وهى الانحراف المتعمد والشديد عن قواعد ذلك النوع الأدبى.

للقصيدة الكلاسيكية ثلاثة أجزاء رئيسية: الوقوف على الأطلال، والرحيل على ناقة أو بعير بحثا عن المحبوبة والتغلب على

مخاطر الصحراء، ثم الفخر بالقبيلة الذى يصف فيه الشاعر البطولات الحربية والنصر على الأعداء، ويقول أقوالا مأثورة تكشف عن مبادئه، أو يتبجح بوصف مشاهد المجون والتبذير بلاحساب.

ولا تكاد معلقة ابن الأبرص تحتوى على أى من هذه الخصائص. وبدلا من ذلك يعدد بطريقة مملة أطلالا أصبحت ملاذا للوحوش وأماكن مهجورة باتت إرثا للموت (عالم يوسم فيه بالخزى من امتد به العمر).

يوجد فى القصيدة الذكر التقليدى للمحبوبة، ولكن عبيدًا لا يذكر لها اسما، كما أنه يؤكد على استحالة الحب والسعادة:

أَو يَكُ أَقفَرَ مِنها جَوُّها　　وَعادَها المَحلُ وَالجُدوبُ

فَكُلُّ ذى نِعمَةٍ مَخلوسٌ　　وَكُلُّ ذى أَمَلٍ مَكذوبُ

...

وَكُلُّ ذى غَيبَةٍ يَؤوبُ　　وَغائِبُ المَوتِ لا يَؤوبُ

الحياة كذبة يعيشها الإنسان لعهد قصير يقضيه متألمًا فى آلة الموت.

قصيدة عبيد مهداة إلى الموت. ومن خصائصها الأخرى والغريبة انقطاعها المفاجئ فى منتصف مشهد وحشى فى الصحراء يتصارع فيه صقر مع ثعلب.

والسؤال الذى حير العلماء الذين درسوا عبيدًا هو سبب إنهائه لمعلقته فى موضع عادة ما يكون فى الجزء الثانى من القصيدة المتعارف عليها. ولا شك عندى فى أنه كان لديه من الوقت ما يكفى لتكملة القصيدة بين تلقيه لفروة ابن عرس السوداء وإعدامه. ولدى فى ذلك نظريتى الخاصة.

فى رواية بعض المترجمين من العصور الوسطى، ذهب الشاعر لزيارة والديه فى مستعمرة الجذام قبل أن يتجه إلى الحيرة. كان ذلك فى بداية الشهر الحادى عشر من التقويم العربى، أى فى الشهر الحرام. ومن المعروف أن اليوم الذى كرسه منذر الغادر للشر كان فى الشهر السادس، ولا يمكن أن يكون عبيد قضى أكثر من شهرين فى الطريق بين بصرى والحيرة.

وبما أن يوم وصوله ورؤية منذر له عند الفجر كان فى الشهر الحادى عشر أو الثانى عشر من التقويم القديم، فلا بد أن ذلك كان اليوم المكرس للخير.

لو كان عبيد قد ترك قصيدته دون أن يكملها، فلا بد أنه فعل ذلك لأنه تلقى ألف قطعة ذهبية وأمة عذراء. قيل إنه كان شابا غير متصنع لا يأبه للثروة ولا للمتعة، فضل الفقر وممارسة موهبته الشعرية. ولكنى أتساءَل: من يستطيع أن يقاوم فتنة الحياة للمرة الثانية؟

(ط)
طاء
الحرف السادس عشر
كرقم: ٩
بالتسلسل: التاسع
أول حرف فى "طريق" و"طوف"

"أى جمال! أى نساء! أى صحراوات!"
ـ لمجهول

تركت صدى أشعارى فى كل مكان واتبعت سبل الغضب والخراب: لم يكن من الصعب اقتفاء أثر ذى السيوف. مات رجال صالح، ولكن كانت واحة الرمال أمامى.

سألت وأنا راكب: "أبحث عن الطريق الذى سلكه أبناء غراب". لم ألبث طويلا حتى أجابتنى العيون المليئة بالأسف، ترجلت وحللت لفة من عمامتى وقدت دابتى لتشرب قرب بعض الحفر والزرائب على مسافة من القرية.

كانت وجوه الرجال جافة، لكن ماء البئر كان نقيا. قررت أن أغتسل هناك بين الشجيرات، بعيدا عن المنازل التى لا يفسر ثباتها على الأرض إلا الجبن. كان الوقت قبل الغسق. وبينما طأطأت رأسى لأدعك شعرى، ظننت أنى سمعت خلفى غرابا ينعق.

نهضت بسرعة خشية أن يكون قد خطف حزامى أو عمامتى فى منقاره، لكنه رفرف طائرا بين سعف النخل. ولما ذهبت لأتفقد أغراضى شعرت بوجود إنسان، فقد غشانى ظله.

ومن بين الحفر والزرائب ظهرت امرأة بلا خمار ترتدى ثوبا أسود جاءت تعرج باتجاهى على ساقين مقوستين حتى حجبت الشمس عنى، غير آبهة لعريى.

- "هنيئا للغريب الذى لا يفقه طيران الطيور، ففيه مكتوب ضياع أبناء غراب، وفيه مكتوب زوال كل شىء".

لا بد أن العرافة أدركت أن حتى آثار أقدام ليلى كانت قد تلاشت. أعلنت لها أنى شاعر اللبؤة وأنى أبحث عن جمال ذلك الوجه المحجوب.

- "إذن عليك أن تحل لغز القاف".

وحكت حكاية مضحكة عن كلمات غامضة مكتوبة على تميمة يستطيع من يفهمها أن يعود إلى الماضى. أجبتها بأنى لا أعرف القراءة، ولا أصدق تلك الخرافات، ولا أنشد إلا مكان ليلى.

- "إذن اقتف أثر ذلك الغراب. هذا هو الطريق المؤدى إلى غراب".

ظننتها تسخر منى، لأن الغراب لا يترك آثارا، وتوعدتها، لكنها انفجرت ضاحكة مثل طائر يحمل نذير شؤم.

أدرت لها ظهرى وشممت رائحة القهوة من خيمة قريبة، فتوقفت عندها للشرب وسط رجال وسخين لا أسنان لهم، ملابسهم رثة كمن يحرث الأرض.

لكن العرافة اتبعتنى، وبصوتها الحاد أثارت إعجاب الحاضرين بى عندما أعلنت أنى شاعر اللبؤة. وبعد ذلك نظرت إلى النجوم ووصفت جمال ليلى، وقصت أحداث يومى فى الصحراء حتى وصلت إلى الواحة وترجلت عن ناقتى وانتزعت قوسى من السرج وقدت دابتى إلى البئر بجوار الحفر والزرائب حيث كانت مختبئة.

وبعد أن حكت كل هذا اختفت فى الظلمة. وفى اليوم التالى انطلقت فى الاتجاه الذى أشارت إليه العرافة. ولا شك أنها كانت هى ذلك الغراب.

استطراد:
مثلثات سبيريدون

لم يخف على العلماء أن نظريات مدرسة كروتونا، وخاصة المتعلقة منها بالمثلث القائم، كان مغزاها ميتافيزيقيا أكثر مما كان رياضيا؛ لذلك لم يكن عبثا أن قيل إن مئة ثور قدموا قربانا للآلهة شكرا على ذلك الاكتشاف الكبير. أنا شخصيا لا أصدق أن قصة القربان حقيقة تاريخية، نظرا لأن طبيعتها العنيفة والمفرطة تتعارض مع مبادئ المدرسة، ولكن بالتأكيد الأسطورة ليست عارضة، ويمكن أن تكون لها صلة بعقيدة الخلود وتناسخ الأرواح التى تتجدد كل مئة عام.

والمزعوم هو أن «سبيريدون»، واسمه الحقيقى نعيم وكان من قبيلة اللبؤة، أخذ لنفسه اسما يونانيا لكونه أول عربى بدوى يحصل على الجنسية الرومانية، وذلك بعد أن ترك خيام الصحراء ليستكشف الطرق التى سلكتها روحه فى تناسخات سابقة وأجساد أخرى.

لم تدرك سبيريدون الشهرة بعد مماته، ولكنه كان فيلسوفا ذا معرفة معقولة وعلم بالكتب القديمة، وكانت له موهبة حسابية حادة. وفى الإسكندرية حفظ محتويات المكتبة بأكملها وتعلم قراءة أوراق البردى، ولكنه ذهب أيضا إلى ضواحى المدينة؛ حيث هبط إلى المدافن وأحيا طقوسا سرية اشتملت على الرقص عاريا على شاطئ البحر والرضاعة من ثدى الحمير.

كان نهما للمعرفة، فلم يفرق بين العلم والتجارب الروحانية، وانضم لعدد من الهندسيين الذين هاجروا إلى رودس لتأمل روعة تمثالها وحل مشكلة تربيع الدائرة.

من المهم هنا التأكيد على حقيقة تاريخية: كان سبيريدون، وليس بطليموس، أول من قدر أن ٣+١٧ / ١٢ لها قيمة π. من الممكن أنه لم يعلن عن اكتشافه لأنه بمجرد أن حققه شك فى إمكانية التعبير عن π بأى كسر لأن الرقم π، وهو مساحة الدائرة الكاملة، غير موجود فى الطبيعة.

كان إحباطه شديدا وحاسما فدفعه لتكريس جهده فى دراسة المثلثات، وتحديداً المثلثات القائمة. وحملته الخصائص الهندسية اللامعدودة لهذه الأشكال على الاعتقاد أنها من مقومات التوازن الإلهى للدائرة، وأن المثلثات من مظاهرها الدنيوية.

ومن هنا نشأت نظرية تناسخ الأرواح التى تقول بأن الإنسان تآلف ثلاثى متغير للمادة والزمان والمكان، وأن الروح حاصل الجمع للزوايا وتشترك فى الخلود مع الدوائر اللانهائية.

وسريعا ما أتى بعض الكفار بدلائل لا شك فيها على ذلك المنطق، لأن سبيريدون بدأ يتذكر أشياء وأناسا كان قد عاش معهم فى الماضى. فى البداية، تعرف أثناء تفقده لتركة تاجر رقيق غنى على إناء لمزج الخمر مصنوع من الفضة وعليه نقش غامض من الأحجار الكريمة. استطاع سبيريدون تفسير ذلك النقش بسهولة، فقد كان يحكى عن أعماله هو عندما كان نحاتا من جزيرة ساموس يدعى منيساركوس كان قد مات منذ حوالى ستمائة عام.

ولذلك سافر سبيريدون إلى ساموس، وهناك ميز أناشيد جنائزية سداسية الأبيات من تأليفه هو عندما كان شاعرا ضئيل الموهبة من ميليتوس اسمه ليسياس، وقد مات منذ حوانى مئة عام.

وفى ميليتوس قاده وجه مومس إلى ناكسوس. ومن ناكسوس ذهب إلى سيرينى مقتفيا أثر ختم لأرخون كان سبيريدون جارية له. وهناك بعد استجواب بغَّال اتجه سبيريدون إلى بيبلوس، على ساحل الفنيقيين، حيث وجد بعض رسوم على سجادة دفعته للسفر إلى القدس.

كانت الرحلة كريهة، فقد سخر من سبيريدون لغوى وقح كان يحب امتهان الفلاسفة:

ـ "لا أؤمن بأى من هذا، لا بتناسخ الأرواح، ولا بقدرتك على تذكر تناسخاتك السابقة".

- "هذه موهبة للعلماء. ألم تسمع عن حكيم كروتونا الذى كان أول من اقتفى أثر روحه واستطاع بذلك أن يوجد فى مكانين فى نفس الوقت؟"

- "كلام فارغ. هذه أساطير قديمة ومضحكة مثل خيالات هوميروس".

- "لا، ليست أساطير، بل مقدرة يمكن تنميتها بفهم الأسرار الروحية للمثلثات. يجب أن ننظر دائما لكل شىء، وكل حدث، وكل حركة، من خلال ثلاثة من صفاته، حيث تحدد العلاقة بين هذه الصفات - أى المثلث المتكون منها - طبيعة الشىء الميتافيزيقية."

- "وماذا عمن لا يستطيع أن يتذكر إناء عمره قرون أو وجه عاهرة؟"

- "بإمكانى البرهنة على ما أقول. كان على الإناء رسم متكرر يتكون من اثنى عشر حجرا كريما. عندما ذهبت إلى ساموس وجدت أن كل الأعمال المنسوبة لمنيساركوس عليها رسوم مشابهة لشكل حرف K - اليونانى - أول حرف من اسم منيساركوس الذى مات منذ ستمائة عام".

- "مجرد صدفة. يظهر الرقم اثنا عشر فى جميع الأساطير: فى أعمال هرقل، وفى العلامات الفلكية، وفى آلهة الأولمب، وحتى فى الاثنتى عشرة قبيلة التى انحدر منها بنو إسرائيل".

- "ولكن لا يوجد فى تلك الأساطير وجه المرأة من ميليتوس التى قادتنى لاكتشاف السلالة بكاملها".

- "اكتشفت سلالة مومس؟! حقا يا سبيريدون؟!"

حاول سبيريدون الإمساك بزمام الحديث وكرر ادعاءه أنه أكمل المبدأ غير المكتمل لحكيم كروتونا عن أكثر المثلثات القائمة كمالا، و هو المثلث ذو الأضلاع ٣ - ٤ - ٥، أى الوحيد الذى تشكل أضلاعه سلسلة غير مقطوعة من الأرقام السليمة والتى مجموعها ٢١، وهو الرقم الإلهى الفريد. ولكنهم كانوا قد دخلوا القدس واجتاحهم حشد فوضوى من الناس.

وصاح عربى: "محكوم عليهم بالموت صلبا!"

دخل اللغوى فى حانة، بينما اتبع سبيريدون مبهورا بالحشد الصاخب الذى سار وراء الرجال الثلاثة. بدت الشوارع الضيقة الممتلئة بالناس وكأنها تُضاعف من معاناة المجرمين الثلاثة الذين أجبرتهم سياط الحراس على جر الصلبان التى كانوا سيعلقون عليها.

وسمع سبيريدون أحد الناس يقول باليونانية المكسرة: "لصان ودجال".

للفظاعة سحر أحيانا ما يكون أقوى من الجمال. هذا ما دار بخاطر سبيريدون عندما وصل الموكب إلى تل خارج المدينة. حجب عنه الرؤية الحشد الذى كان أمامه، وسمع فقط صوت المسامير

وهى تُدق وصراخ المحكوم عليهم. وبعد أن تم رفع الصلبان تمكن أخيرا من رؤية مخطط المثلثات القائمة.

كان ذلك دافعا لتفسير مجازى. حلل سبيريدون المشهد: ثلاثة أشخاص على ثلاثة صلبان. لكل صليب منها أربعة أضلاع، أى ٣-٣-٤. إذن، المثلث المتساوى الساقين الذى محيطه ١٠ وارتفاعه أقل من قاعدته يرمز للطبيعة البشرية. الارتفاع الأقل من قاعدة يدل على نزعة أشد للأرض منها للسماء. وقيمة المحيط، ١٠، تضاعف ٥، أى أطراف الجسد البشرى. وخاصية المثلث المتساوى الساقين، وهى تساوى ضلعين من أضلاعه، تشير إلى التوازن بين الخير والشر.

وفجأة، قطع حبل أفكاره صوت اصطدام قوى تبعه هرج ومرج. التفت سبيريدون مذعورا إلى الخلف، وكان أهل المدينة أكثر اضطرابا. وحاولت امرأة هيستيرية بعنف الاقتراب من الصلبان، بينما أمسك بعضهم بشعرها ليمنعوها. ابتعد سبيريدون قليلا فى اتجاه بعض الجنود الرومان الذين انشغلوا بالنرد.

وظل هناك يتفرج على مسيرة الموت إلى أن فارق الثلاثة الحياة. وعندئذ نظر لأول مرة للمصلوب الذى رقد فى الوسط. شىء ما فى ذلك الوجه جعله يتذكر شخصا ما، فدقق النظر مرة أخرى. وفجأة غلبت على ذهنه صورة. لم يعد هناك أدنى شك. كان قد شهد مولد ذلك الرجل منذ ستمائة سنة.

وصرخ فى لغته الأم: "يا الله! هذا فيثاغورس!"

(ابتداء من القرن الرابع، نشر بعض الفلاسفة الوثنيين الذين اعتنقوا ديانة الإمبراطورية الرومانية الرواية التى تقول إن سبيريدون جمع ثلاثة صلبان وأربعة أطراف وخمسة أشخاص بدلا من ثلاثة - لصان وثلاثة كائنات ربانية اجتمعت فى الدجال - مما أدى إلى المثلث القائم والكامل ذى الأضلاع ٣و٤و٥، ومحيطه ١٢. لا تسمح مصادرى بمثل هذه الأوهام، ولا أعتقد أن ذلك يعزز النظرية).

(ى)

ياء

الحرف الثامن والعشرون

كرقم: ١٠

بالتسلسل: العاشر

أول حرف فى "يمين" و"يسار"

"ثلاثة إيمانهم راسخ: الفارسى ببروجه الفلكية، واليهودى بقانونه، والعربى ببعيره"

- مجهول

بعد اجتياز الصحارى، ومواجهة العواصف، وصعود المنحدرات الوعرة، وعبور الممرات الضيقة المظلمة. وصل الغطاش إلى دير المغارة. ومن أعلى الهاوية التى حجبت المبنى (الذى هدم فيما بعد) نظر إلى الوادى الخصب وعيون الماء العذب والقرية الصغيرة التى سكنها رهبان رعوا الغنم وزرعوا النخيل. ولا بد أن بصره امتد

أيضا لأسفل ذلك الجدار المتهدم والسلم الحجرى المؤدى لواجهة الكنيسة الممتدة إلى داخل المغارة.

لا بد أن الغطاش دار حول الشقوق حتى استطاع الهبوط إلى القرية. كانت آثار قسوة غراب لا تزال واضحة: صلبان على قبور حديثة العهد، وبساتين خربت، وحيوانات ميتة جمعت عند مداخل الحظائر.

وعلى الأرجح طلب اللبؤى ماء، ومأوى لناقته، ولكن أحدا لم يجب طلبه. ومن المؤكد أن الشاعر ألح فى طلبه وسأل عن الطريق الذى سلكته غراب، بلا فائدة. ومن المحتمل أنه لما كرر سؤاله لعدد من الرهبان الذين وجدهم هناك أدرك أنهم بُكم.

هذا الجزء من القصيدة غامض ومحير، لكن يبدو أن الغطاش فى غضبه جرح أحدهم وجذب شعر آخر. ومن الغريب أنه لم يكن هناك رد فعل، مهما حاول أن يسأل أو يتحدث، طأطأ المتقشفون رؤوسهم مثل خنازير تنقب عن قشور فى حظيرة.

مشى الغطاش عبر صمت القرية المطبق متجها إلى الكنيسة. صعد السلم واقتحم المعبد صارخا وهاويا بسيفه على الأثاث المتواضع الموجود فى طريقه، حتى وصل إلى الداخل مطالبا بمعلومات عن قبيلة ليلى، ومهددا بتحطيم كل شىء إن لم يرد عليه أحد.

التحم الجزء المبنى من الكنيسة بالصخر، وكان الجزء الآخر مكونًا من مغارة طبيعية بالجبل. كان هذا الجزء الأخير أكبر وأضيق من الجزء المبنى، وكان فى نهايته ما يشبه الفم (لا بد أنه كان مكان المذبح) الذى امتد إلى شق ضيق وعال ممتلئ بكوات جانبية على هيئة خلايا. وكان الدير فى هذا السرداب المظلم عديم التهوية.

وفى الداخل كان أربعة رجال يعملون، كُلٌّ فى جُحْرِه. كانوا مبللين بالعرق ومتسخين، ولم يرفعوا أعينهم عن مخطوطاتهم الرقية حتى قذف الغطاش أحدهم بمصباح زيتى فأزاحوا اللهب عن ثيابهم بأقلامهم.

- "سأحرق ما تبقى إن لم تقولوا لى أين ذهبت قبيلة غراب. كنت عند العرافة العرجاء وأعرف أنهم كانوا هنا".

ضرب أحد الرهبان الأرض بإخمص قدمه ليجذب انتباه الآخرين. وشاهد الغطاش مشهدا غريبا: تحدث الأربعة مع بعضهم بعضا عن طريق الكتابة، حيث نقشوا حروفا فى التراب بطرف عصا.

كان الغطاش على وشك أن يقذف بمصباح آخر عندما بدا له أنهم انتهوا من حديثهم. ودون كلام، دخل الراهب الذى كان قد ضرب الأرض بقدمه إحدى الخلايا ووضع بعض متعلقاته فى خرج وجذب ذراع الغطاش، مشيرا إلى مدخل المغارة.

وفى الخارج توقف بجوار الناقة. وأخيرا فهم الغطاش: سيقوده الراهب الأبكم إلى الطريق الذى سلكته قبيلة غراب.

مؤشـــر:
زهيـر

كان زهيـر نقيض الغطاش تماما، الشىء الوحـيد الذى تشـابها فيه هو عادة الأكل باليد اليمنى. وحسب تصوير قديم، شابهت حياة الغطاش الأثر الملتوى للثعبان، بينما كانت حياة زهير مستقيمة كجذع النخلة.

كان التواضع دناءةً عند العرب، ولأن زهيرًا كان فخورا بانتمائه لسلالة طويلة من الشعراء، كان يحتقر الغطاش الذى كان أجداده من العامة. وأتى زهير فى شعره بالكثير من الأقوال المأثورة.

كان زهير رمز الوقار والحكمة، والشاعر العربى الوحيد الذى لم يحمل السلاح. وينبغى أن يعد بطلا لأنه حرم نفسه من تلك المتعة.

من السائد نسبة العمر الطويل للحكماء الأسطوريين. ويقال إن زهيرًا تمتع بتلك الخاصية، حيث ناهز المئة والعشرين عاما. ومعلقته التى أشادت بانتهاء حرب دامت أربعة عقود نبع لاينضب

من الأمثال والحكم:

رَأيتُ المَنَايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب   تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ
وَمَن لا يُصانِع فى أُمورٍ كَثيرَةٍ   يُضَرَّس بِأنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ

...

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

...

وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزُجاجِ بِنلنهُ   يُطيعُ العَوالى رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ

...

و كائن ترى من صامت لك معجب   زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

من السهل ملاحظة أن البيت الثالث لا يتفق مع شخصية زهير المسالمة؛ والتفسير المعتاد والمقنع لذلك هو أن البيت لشاعر آخر أُدخل فى معلقة زهير فيما بعد لأن له نفس الوزن والقافية.

أود أن ألفت الانتباه إلى أن البيت ليس له نفس الوزن والقافية وحسب، بل إن أسلوبه أيضا مطابق لأسلوب زهير، كما هو واضح. البيت إذن لزهير، ولكنه من قصيدة أخرى ضائعة لا تدين الحرب، بل تصف ـ فيما أظن ـ فنون الحب وتقدم الإرشادات العملية للجنس.

كانت لزهير خبرة واسعة فى هذا المجال، كما ادعى أن تجاربه الشهوانية اشتركت فيها أكثر من سبعمائة امرأة من جميع الأجناس والطبقات والأعمار. وعندما بلغ التسعين من العمر، كان لا يزال باستطاعته أن يمتع إحدى عشرة زوجة فى نفس الوقت.

كان زهير أول من اكتشف أن الاستسلام للغرام مثل فقدانه. ولكن هذه النظرية دفعته فى الاتجاه المعاكس للعقائد التسامية، مثل البوذية، فأذعن للعشق، كما تصور الأبيات التى يستهل بها معلقته.

يتأمل زهير فى تلك الأبيات الأطلال البكماء لخيام «أم أوفى» فى التلال الرمالية، ويتذكر أثرا لوشم، وينظر إلى البقر الوحشى ذى العيون الكبيرة وإلى الظبيان البيضاء، قطيعا بعد قطيع، بجوار العجول التى كانت تثب لترضع. وهذا بالتحديد هو المكان الذى توقف فيه بعد عشرين سنة ليحاول دون جدوى أن يستشف الأثر.

المشهد تقليدى، فكل القصائد كانت تفتتح به. ولكن اللافت للنظر هنا هو العشرون عاما، هل من الممكن أن الفرصة لم تسنح لزهير فى كل هذا الوقت لمقابلة أم أوفى، مع معرفته بالأماكن التى تتحرك فيها قبيلتها، ومع وجود العديد من الأسواق التى كانت تلتقى فيها القبائل؟

يمكن أن نستشف السر فى تسلسل النص: يحث زهير رفيقه على اقتفاء أثر الهوادج التى تتبع أحواض الأنهار المؤقتة إلى العيون الدائمة، وتعبر صحراوات من الرمال البيضاء وأخرى من الرمال الحمراء، مسرعة باتجاه الواحات الظليلة. وهناك تتوقف أمام المياه الزرقاء لبحيرة ممتلئة لكى تنزل النساء ويغصن فيها عاريات.

كان هذا الرفيق - وليس زهيرًا - هو الذى صاحب قبيلة أم أوفى فى تنقلها الموسمى، ويقال إن أم أوفى كانت تعطل مسار القبيلة

أملا منها فى أن يلحق بها زهيرًا. ولكن زهير احتال بكل الوسائل لكى يصل إلى المخيمات بعد سنوات طويلة.

ولكنه كان دائما على دراية بحكايات رفيقه، إلا أن ذلك الشخص الذى لم يحفظ التاريخ اسمه لم يمتلك الموهبة الشعرية التى تمكنه من وصف أم أوفى بالدقة التى يستطيعها الشعراء.

أما زهير، الذى أحب «أم أوفى» كما لم يحب أحدا غيرها، فكان يفاجئ النساء الغافلات ويكشف حجابهن قبل أن يتمكنّ من أى رد فعل و يقول: "أنت أم أوفى".

وعاش مئة عام.

(ك)

كاف
الحرف الثانى والعشرون
كرقم : ٢٠
بالتسلسل : الحادى عشر
أول حرف فى "كريم" و"كلب"

"اثنان بريئان: المرأة الجميلة والرجل المسلح"
- لمجهول

بعد أن عبرا صحراوات شاسعة، وبعد أن سرق الغطاش ناقة للراهب، وبعد أن أمضيا سبع ليال ملتفين بالأبسطة. قطع صوت عربى صمت الصحراء.

- "اسمى مكاريوس. لم أنطق بكلمة واحدة منذ سبع سنوات".

وسمع اللبؤى بعد ذلك قصة الشاب الذى هجر بيت أبويه فى دمشق طلبا للمنفى الاختيارى فى دير المغارة الذى لا يصلح للسكنى.

وعامله الأب شكور معاملة الابن، وكان أكبر النساك عمرا وأحد مكتشفى المغارة ومؤسسى الكنيسة. وكان مكاريوس مقربا من الأب شكور ومؤتمنا على سره، بشكل أو بآخر، وبفضل تلك المكانة عرف بأمر الفتنة الكبيرة التى ابتلته.

فقبل سنوات عديدة أتت إلى الدير عرافة عرجاء عجوز ترتدى خرقا سوداء لتطلب المأوى. ردها الأب شكور على أعقابها. بعد فترة طويلة بدا خلالها كأنه يقاوم إغراءً كبيرًا.

ذلك لأن الغراب ـ كما وصفها مكاريوس ـ تنبأت بموت الأب شكور عندما تفحصت آثار أقدامه فى الرمال، ودفعته لحل لغز يمكنه من العودة إلى الماضى.

كتب الأب شكور المسن ذلك اللغز على ظهر لوح كان على وجهه الآخر نقش بارز للصليب. كتب الكلمات كما سمعها من فم العرافة، ودون أن يترجمها إلى إحدى اللغات المستعملة فى ذلك الزمان.

سينكر العلماء ذلك، حيث إن العربية لم تكن لغة مكتوبة بعد. ولكنهم لا يعرفون أن الأب شكورًا كان حينها بصدد تطوير الأبجدية العربية التى لم يتسن له تعميم استخدامها.

وحل الأب شكور اللغز، ولكن من شدة هلعه وندمه أخذ على نفسه عهدا بالصمت. وفعل مكاريوس والرهبان الآخرون الشىء نفسه حتى دون أن يعرفوا السبب، ودون أن يتلقوا جوابا على أسئلتهم.

وعاش الأب شكور معذبا بسبب ذلك النص المجهول، ودفن اللوح فى الرمل فى محاولة لنسيانه، وعاد لتطوير الأبجدية العربية، مستعينا على ذلك بترجمة الإنجيل.

وذات ليلة بدا للأب شكور أنه لمح هيئة العرافة العرجاء فخرج من صومعته على عجل، ولكنه لم يجد فى أسفل السلم إلا جرذا ينبش فى المكان الذى كان قد دفن فيه اللوح.

وأذعن الأب شكور مرة أخرى وأمضى وقتا طويلا فى إعداد نفسه للتجربة وهو ملتزم الصمت، وانهمك فى حسابات معقدة حتى نَسِىَ تناول الطعام. ولكن وصلت غراب إلى جوار الدير فى نفس اللحظة التى بدأت فيها الظاهرة.

لم يرغب رجال القبيلة فى معرفة اللغز، إنما أرادوا فقط معرفة مكان العرافة العرجاء. ولكن أحدا من الرهبان لم ينقض عهد الصمت.

ولم يلاحظ الأب شكور وصول بنى غراب من مكان وقوفه أعلى السلم لأن عينيه كانتا مسمرتين على نقطة ما فى السماء، ولم ير أنهم كانوا يحملون المشاعل، ولم يرهم يترجلون عن أفراسهم اللاهثة، ولم يرهم يسألون الناس، ولم يرهم يضربون حتى الشيوخ، ولم يرهم يقطعون النخيل، ولم يرهم يضرمون النار فى الحظائر، ولم ير نصل أحد سيفى ذى السيوف.

رأى مكاريوس ما حدث من نفس المكان الذى وقف فيه الأب شكور، ونظر كذلك إلى النقطة المضيئة التى كان الأب شكور

يتأملها عندما اقترب منه ذو السيوف. ورأى مكاريوس فى لمحة سريعة تكرار المشهد: وقوفه على درجة أدنى من تلك التى وقف عليها الأب شكور، ووصول غراب، والمشاعل، وهبوط الرجال عن أفراسهم، والأسئلة، وضرب المسنين، وحرق الحظائر، وقطع النخل، ونصل سيف ذى السيوف.

وأخذ رجال غراب جثة الأب شكور كما فعلوا مع بلبل من قبل. وفى نقاشهم الصامت بالكتابة أمام الغطاش، وعد مكاريوس الرهبان الآخرين بإعادة جثة المسن المحبوب لدفنها فى قاع المغارة.

ولم يكن الغطاش بحاجة لسؤال الراهب عما إذا كان اللوح الذى يحمل نقش اللغز بين محتويات الخرج الذى اصطحبه من الدير.

استطراد:
غرق سفينة سنباد

لا شك أن قراء ألف ليلة وليلة من الغربيين، وخاصة أولئك الذين تصفحوا ترجمة جالان، يعرفون جيدا قصة السندبادين، البحار والحمال (و كان أحدهما، أى الحمال. يعرف أيضا باسم هندباد فى بعض الطبعات). ولكن لا بد أن العارفين بالأمر سمعوا أيضا عن سندباد ثالث ـ أو بالأحرى سنداباد ـ و هو أمير فارسى بطل كتاب يحكى قصة نشأته، على شاكلة كتاب سيروبيديا لزينوفون.

أما السنباد الرابع، الذى لم يكن اسمه سندباد ولا سنداباد بل سنباد. فهو الأصلى والأقدم، وإن كان ذنبه الوحيد هو عدم وجود كتاب يحكى مغامراته.

كان سنباد الخادم المفضل لأرملة اغتنت من تجارة المر والبخور، إلى أن جاء اليوم الذى أبحر فيه إلى ميناء فى خليج عمان، فى طريقه لأسواق الهند.

كانت الرياح متقلبة، فضلت سفينة سنباد طريقها وسارت على غير هدى أينما حملتها الأمواج. ثم بدأ طاقم السفينة يموتون واحدا بعد الآخر. لكن سنباد بَقِيَ على قيد الحياة لأنه حصل على كيس مليىء بالتمر من ربان السفينة وخبأه بين الجثث التى كانت العقيدة الوثنية تحرم إلقاءها فى البحر.

وبعد أن مات الآخرون غرقت السفينة قريبا من ساحل جزيرة مجهولة فى وسط المحيط. ولم يكن سنباد ليتخيل أن منقذيه من الغرق كانوا يتكلمون العربية.

وقال أحدهم: "نجونا من الغرق، كما نجا آباؤنا قبلنا، فاستبدلنا صحراء بأخرى".

كانت الجزيرة صغيرة، ولكن كان فيها كل شىء: أنهار من الماء العذب، وأشجار فاكهة، وعلى الرغم من عدم وجود حيوانات كانت الأسماك متوفرة فى الأجوان العديدة على ساحلها. الشىء الوحيد الذى استغرب له سنباد عندما صَعِدَ إلى الرعن الذى عاش فوقه السكان هو عدم وجود نساء تقريبا بينهم.

- "هذه جزيرة ملعونة، كلنا هالكون. حاول ألا تخرج من كوخك بعد غروب الشمس".

لو أذعن سنباد لتلك النصيحة لما كنت حكيت هذه القصة. فى تلك الليلة نفسها لم يستطع النوم بسبب أصوات غريبة بالخارج. تسلل بحذر حتى تمكن من رؤية رجال يتحركون بكآبة، يدخلون

ويخرجون من أكبر كوخ فى القرية، وكان مشيدا على أعلى مكان فى الجزيرة.

وعندما استيقظ فى اليوم التالى تلقى الخبر: "قتلوا اثنتين أخرتين بالأمس".

علم إذن سنباد أن نساء الجزيرة يُقتلن بانتظام ويؤكلن كل ليلة، دون أن يُكتشف القاتل.

ومر الوقت على نفس المنوال: حركة خفية ليلا بناحية الكوخ الكبير، ونساء ميتات، وأجساد تكاد تكون مجردة من اللحم فى الصباح.

لكن سنباد لم يجرؤ قط على الخروج من كوخه حتى أيقظه أحد الرجال ذات ليلة قائلا: "بامكانك أيضا أن تصحبنا، فأنت الآن واحد منا".

وعندما دخل الكوخ الكبير رأى الآتى: كانت نساء الجزيرة، أو القليلات الائى تبقين منهن، مضطجعات على حصر من الألياف الخشنة، وكان الرجال يأتونهن بالتوالى، وبلا تمييز. وأخذ سنباد أيضا دوره.

ورغم أُلفته الرجال لم يتمكن من معرفة سبب موت النساء بتلك الطريقة. ولما نقص عدد النساء إلى حد الانقراض، اكتشف الجميع السر، بما فيهم سنباد. ذلك لأن النساء أصبحن لا يتعرضن للفتك ليلا وحسب، بل أيضا فى وضح النهار. كُنّ آخر من تبقين من تعداد كبير، وكُن أيضا أكثرهن شراسة.

لم ينس سنباد قط كيف وثبت إحدى النساء ذوات الشعر الهائج على الأخرى فجأة وهى تزمجر وأنشبت أسنانها وأظافرها فى فريستها لتقتلها ثم تأكل لحما نيئا وتلعق دمها.

ومع التناقص الدؤوب لعددهن، زاد الشجار بين الرجال المتنافسين على دخول الكوخ الكبير وتحول إلى صراع مميت. كان سنباد من أكثر الرجال قوة، ولذلك نال هو والأقوياء الآخرون (وكذلك البنات اللائى لم يبلغن بعد واستبقين لذلك على حالتهن البشرية) شرف التعرف على آخر النساء المتوحشات، لبؤة، الملكة التى افترست ولم تُفترس.

وأثناء وجودها فى الجزيرة، اتخذت لبؤة لنفسها أحد عشر زوجا وأنجبت أولادً أكثيرين أصبحوا فيما بعد أشراف قبيلة اللبؤة وشريفاتها، حيث سميت القبيلة باسمها. وأثناء ذلك، أنجبت البنات اللائى كن صغيرات أثناء وجودهن فى الجزيرة سلالة من العبيد.

ولما شارفت الملكة على الموت علّمت الرجال فن بناء السفن وأفصحت لهم عن طريق العودة، وقاد سنباد السفينة إلى البر. ولا أحد يعرف بالضبط كيف حدث ذلك، ولكن من المحتمل أن لبؤة والنساء الأخريات خبأن ذلك السر منذ الساعة التى بدأن فيها القتال، أى منذ الوقت الذى كن يستطعن فيه العودة ولكن قررن البقاء حتى يتضح لهن من كانت أكثرهن شراسة.

(ل)
لام
الحرف الثالث والعشرون
كرقم: ٣٠
بالتسلسل: الثانى عشر
أول حرف فى "لحم" و"لين"

"إن لم تكن لك فاسرقها"
ـ على بابا

كنت ذات مرة جائعا ومفلسا فى مطعم عربى فى شارع سينيور دوس پاسوس فى ريو دى چانيرو عندما لفت انتباهى لبنانى ضخم الجثة يأكل الكِبة النيئة، ويحكى قصصا بأسلوب يشابه أسلوب ألف ليلة وليلة.

تظاهرت بالاهتمام لكى أقترب من الكِبة، وظللت واقفا هناك أستمع وأنتظر اللحظة المناسبة، إلى أن أتى الرجل بذكر جبل أسطورى اسمه «جبل القاف».

طلبت منه أن يقـول المزيد فـى هذا الموضـوع مـتظاهـرا بـأنى لا أعـرف شـيـئـا عنه، ودون أن أحـيـد عن هدفى الأسـاسـى. وكنت محظوظا، حيث إن اللبنانى التقط رغيف خبز عربى وبدأ يشرح لى أن البدو القدماء اعتقدوا أن الأرض كانت قرصا مستديرا مثل ذلك الرغيف، وأن القاف كان جبلا أسطوريا هائلا يحيط بالأرض ويحفظ توازنها.

اقتنصت الفرصة للجلوس والتقطت رغيفا آخر بينما سألته إن كان قد سمع عن العفريت المسمى جَدَه وعلاقته بلغز يسمى على اسم الجبل.

قال إنه لم يسمع قط عن أى ألغاز، وكذلك لم يعلم أن العفريت كان أحْوَلَ، ولم يعرف الرواية التى ذكرت أن سبب عماه كان سيف الإسكندر الأكبر. حسب علم اللبنانى، كان العفريت أعمى العينين منذ البداية.

بدأت إذن (بينما قطعت الرغيف أسفل الطاولة واختلست القطع الصغيرة من الكِبة) فى قص حكايات عن أشخاص وقعوا ضحية لشهادة جَدَه فى الصحراء.

وتململ اللبنانى بعصبية عندما سألته عن سبب عمى العفريت وقال (و كأنه يكشف سرا) إنه كان يعانى من مرض الساد أو الزرق.

ـ "أعـرف الكثـيـر من الحكايات عن جَـدَه"، وأكمل حـديثـه بفم ممتلئ.

وبعد ذلك مضيت، دون أن أدفع الحساب بطبيعة الحال، وذهبت لمراجعة قصص اللبنانى. لم يكن فى أى منها ذكر للعرافة العرجاء ولا للراهب مكاريوس اللّذيْن استطاعا رؤية الماضى عندما حدقا بنقطة ما فى السماء.

وبالتالى لم يعرف اللبنانى كيف حدثت تلك الظاهرة. كانت القصص التى ملأ بها أذنى على النمط التقليدى لحكايات عن آلة للزمن تمكن المرء من السفر لمسافات طويلة فى الماضى والمستقبل، ولكن القافية تتحدث عن إمكانية مشاهدة الماضى كأنه فيلم سينمائى.

أما فرضية أن جَدَه كان مصابا بالساد أو بالزرق فكانت خصبة جدا.

واشتد انفعالى من سرعة توالى الخواطر: قد تكون العين غير المبصرة لجده مثل شاشة عرض يشاهد عليها الراهب والعرافة الماضى، وأن النقطة السماوية التى بحث عنها الأب شكور ورآها مكاريوس لابد وأنها تطابقت تماما مع العين العمياء التى لم يقتلعها الإسكندر.

يمكننا هذا الفهم من تفسير عدة مقاطع من القصيدة تفسيرا منطقيا، كما يلقى الضوء بالتحديد على الغرض من التلسكوب الموجود فى مكتبة جدى نجيب، ألا وهو البحث عن عين جَدَه فى السماء.

مؤشــر:
الشَّنْفَرَى

تشــابه الغطاش والشـنفـرى فـى أمــرين مـهـمــين. أولا: تنكر الشَّنفرى لقبيلته، وهذا ما انتهى إليه حال الغطاش. وثانيا: لم تُضم قافية الغطاش ولا لامية الشنفرى فى مجموع المعلقات.

وفى الواقـع أن قـضـيـة لاميـة الـعـرب مـذهلة. وكـمـا حـدث مع قـصـيـدة الـغطاش، اعـتُـبـرت قـصـيـدة الشنفـرى مـزورة، وقـيل إن صاحبها الحقيقى نحوى متخصص فى الشعـر الجاهلى عـاش فى القرن الـعـاشـر الميـلادى، وتحـديدًا فـى شـعـر القبـائل اليمنيـة، مثل قبيلة الشنفرى.

من المذهل حقـا أن الشنفـرى لم يظهـر فـى أى من المجـمـوعـات الشـعـرية القـديمـة. وأعـتـقـد أن مـا يفسـر ذلك هو التـحيـز ضـد الشعراء الصعالكة.

كان الشنفرى أحد هؤلاء الصعاليك الذين طُردوا من قبائلهم وطاردهم ذووهم، فعاشوا منفردين يذودون عن أنفسهم، دون أن يأخذ بثأرهم أحد إذا قُتلوا.

وفى طفولته خطفته قبيلة فهم ـ الأعداء الألِدة لأزد ـ بعد أن قتلوا أبويه. وكانت الحرب سجالا بين القبيلتين، فذات يوم أسر فرسان من أزد كانوا أقرباء للشنفرى رجلا من فهم. وهكذا أصبح شاعر المستقبل فدية لذلك الأسير.

لم يتذكر الشنفرى هذه الأحداث لأنه كان صغيرا عند وقوعها، ولم يعرف هذه القصة حتى جاء اليوم الذى أحب فيه فتاة تدعى أميمة كانت قد خطبت لتوها لأحد أشراف القبيلة.

كان الشنفرى يخشى أن يدنس أميمة بقبلات خادم، ولكنها من سخطها كشفت له السر وأخبرته أنها ابنة عمه وأنها تفضل الزواج به. توجه الشنفرى غاضبا لمساءلة عمه عن سبب عدم اعترافه به بوصفه فردًا شرعيًا من القبيلة، فكان الجواب هو الصمت المخزى.

ـ "لن أهدأ حتى أقتل مئة من أبناء أزد، قبيلتى التى عاملتنى كأنى عبد!"

وهكذا بدأ انتقام الشنفرى الذى ذهب ليعيش بين وحوش الصحراء. وتمجد لامية العرب هذه الحيوانية:

ولى دونكم أهلونَ سِيْدٌ عَمَلَّسٌ   وأرقطُ زُهـلول وَعَرفاءُ جـيألُ
هم الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ   لديهم ولا الجانى بما جَرَّ يُخْذَلُ

...

تَرُودُ الأرَاوى الصُّحْمُ حَوْلى كأنّها   عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُـلاءُ المُذَيَّـلُ
ويَرْكُـدْنَ بالآصَـالِ حَـوْلِى كـأنّنـى   مِنَ العُصْمِ أدْفى يَنْتَحى الكِيحَ أعْقَلُ

وقتل الشنفرى ثمانية وتسعين رجلا من أزد قبل أن يقع فى كمين ذات ليلة فى الشهر الحرام. وفى خضم المعركة بترت يده اليمنى، ولكن فى كرة شديدة البأس استطاع أن يقتل التاسع والتسعين بيده اليسرى.

كان هذا آخر البشر الذين قتلهم وهو حى. ولما تمكن منه الأزديون أنشد هذه الأبيات قبيل موته:

لا تَقْبُـرونى إنّ قَبْـرِى مُحَـرَّمٌ   عَلَيْكُمْ وَلكِنْ أبْشِرى أمَّ عامِرِ
إذا كحْتَمَلُوا رَأْسِى وفى الرأس أكْثَرِى   وَغُودِرِ عِنْدَ المُلْتَقَى ثُمَّ سَائِرِى
هُنَالِكَ لا أرْجُو حَيَـاةً تَسُـرُّنى   سَجِيسَ اللَّيَالى مُبْسِلاً بالجَرَائِرِ

لم يربط أحد بين هذه الأبيات والعهد الثأرى الذى كان قد قطعه على نفسه قبلها بسنوات. وبالفعل تركوا جثته ولم يدفنوها.

وقبل أن يتحلل جسده تماما جاءت الفتاة الساخطة وهى تبصق وتلعن وركلت الجثة بعنف. ويقال إنها بكت بعد ذلك ندما ودفنته،

ولكنها ماتت من عدوى أصابتها من جرح فى قدمها التى شقتها عظمة من عظام الشاعر الصعلوك.

وبهذا وفَّى الشنفرى بالعهد الذى قطعه على نفسه أن يقتل مئة من أزد.

وهذا أكبر برهان على ملكة الشنفرى الشعرية التى ضاهت قدرات العرافين والسحرة، ولذلك انتشرت عنه فكرة أنه لم يكن بشرا بل واحدا من الجن الذين لم يستطع سليمان السيطرة عليهم. ومن الواضح أن هذا هراء. بوصفه كصعلوكا وشاعرا، كان الشنفرى يعرف أن قوانين الحب واضحة جدا، ومنطقية جدا، وحتمية جدا، فلا يفلت من العقاب من خالفها، أيا من كان.

(م)

ميم
الحرف الثامن عشر
كرقم: ٤٠
بالتسلسل: الثالث عشر
أول حرف فى "مرئ" و"مر"

"ولم أسأل الله إذا كان بإمكانى شراؤها من السوق؟"

ـ منذر الخائن

من أعالى عش الصقر بين أنقاض حصن قديم، لمحت خيام أبناء غراب السوداء المنصوبة فى الصحراء كأنها حبيبات من الروث الجاف. كان خرج مكاريوس فى يدى، وفيه لغز القاف. وفى الأفق كان جمال ليلى يغطيه الخمار.

إذا صدقت العرافة، كان كل ما ينبغى للإسفار عن ذلك الوجه هو حل اللغز. فتحت الخرج وسكبت محتوياته: رق، وجلود، وجذل قلم،

وثلاث أو أربع ريشات، وشظية حادة من الصخر، وتميمة خشبية محفور على وجه منها صليب وعلى الوجه الآخر نقش مرسوم.

- "اقرأ لى هذا أيها الراهب وإلا قطعت عنقك".

وقذفت التميمة فى وجه مكاريوس. قلبها الراهب فى يده بخيبة أمل.

رأس عل شـــمس

رجل عل شـــهـــر

عـــين عل عـــشـــر

جـــــده عل قف[1]

كان قد ورث الغباوة والجبن عن أسلافه الدمشقيين، فقال:

- "أعرف اليونانية والآرامية، ولكن لا أعرف الأبجدية التى كتب بها هذا اللغز. دفن سر هذه الرموز مع الأب شكور".

يا لتعاستى! لا أعرف قراءة أية لغة، فكيف أقطع عنق من عرف لغتين؟

- "إذن سأزيح النقاب عن ليلى دون حل اللغز".

وهبطنا سفح الجبل وكأننا نمتطى النعام. ومن بعيد سمعت نباح كلاب الحراسة ورأيت أعلاما ترفرف، ثم أحاط بنا ثلاثة وثلاثون رجلا. رماحهم مثل حلمات نساء مقرورات.

---

(١) لم تكن حروف العلة تكتب فى ذلك العصر، وبالتالى نكتب الآن "على" بدلا من "عل"، و"عاشر" بدلا من "عشر". و"قاف" بدلا من "قف".

- "لا داعى لأن يخاف أبناء غراب من عطش الغطاش. جئت لأدلكم على مكان العرافة العرجاء".

ولما ترجلت أمام شيخهم لاحظت ابتسامة على شفتيه.

- "جئت لآخذ أخت صباح، سأعطيكم فيها أربعمئة وأربعين بعيرا فى موسم الحج فى مكة، والمئتين والعشرين الآخرين مهرا لصباح، كما سأخبركم عن مكان لقائى بالعجوز العرجاء التى تبحثون عنها".

- "إذن تكون أخت صباح لك عندما يقتفى رجال غراب الأثر الذى تتحدث عنه ويأتون بالعرافة لخيام القبيلة، وبعد أن تأتى بالستمائة والستين بعيرا إلى مكة فى موسم الحج، وبعد أن ينازل شاعر اللبؤة الرجل الذى اختارته ليلى ويهزمه".

لم أفهم ذلك الشرط الثالث جيدا، فقد حدث اختلاط بين الأختين. ورأى المثنى استغرابى.

- "ومن غريمى؟"

- "ذاك"، وأشار الشيخ إلى واحد من الثلاثة والثلاثين الذين أحاطوا بنا. نظرت إليه ورأيت أن له سيفين فى حزامه: ذو السيوف.

استطـراد :
علامات نخل التطابقيـة

يتفق مؤرخـو الحضـارة، وبالتـحـديد أولئك الذين يهتـمـون بتطور الكتـابة، على أن هـذا الفن ابتكره السـومـريون، وأن الفـينيقـيـين هم من اخترعوا الحروف الأبجدية.

وسـبب تفـوق الكتـابة بالأبجـدية على الأنواع الأخـرى هو العـدد المحـدود للعـلامـات المستخـدمـة لكتـابة جمـيع الكلمـات، مما يبطل الأنظمـة الأخـرى مـثل الإيديوغـرامات الصـينيـة والبيكتـوغـرامـات المصرية (المعروفة أيضا بالهيروغليفية) وجميع المقطعيات على مثال السانسكريتية.

وليس علم الآثار هو الوحـيـد الذى يقـدم البـرهان على سـبق الفينيقيين فى هذا المجال، فمـن السـهل نسبيا مـلاحظة أن الحـروف الفينيقـيـة كانت منبـع جمـيع الأبـجـديات الأخـرى، وذلك من خـلال أقـدم أبجـديتين انحـدرتا منهـا : الآرامـيـة (والتى نبـعت منهـا العبـرية

الحديثة والعربية والأبجديات الهندية)، واليونانية التى هى مصدر الكتابة الأترورية ثم بعد ذلك اللاتينية، وهما المستعملتان حاليا فى كل اللغات الأوروبية.

وبفضل ذلك الاختصار الفريد لعدد الحروف، وتلك القدرة الرائعة على تصوير الكلمات من خلال نطقها بدلا من الأفكار التى تعبر عنها، قدر الباحثون أن اختراع الأبجدية الفينيقية كان له دافع عملى مثل التجارة أو العلاقات السياسية. ونادرا ما ربط هؤلاء العلماء بين ظهور الأبجدية والظاهرة الدينية.

وكل ذلك سفاهة، فالأبجدية اخترعتها امرأة أرادت أن تأسر الزمن.

قلت منذ قليل إن الكتابة الفينيقية كانت مصدر جميع العلامات الكتابية المعروفة. وكالعادة هناك استثناء، فقد عثر بالقرب من نخل، فى صحراء سيناء، على نقوش مجهولة، من الواضح أنها كتابة من نوع ما، ولكن لا أثر فيها لأى تأثير فينيقى. يعتقد المتخصصون أن هذه النقوش تعود إلى بداية الألفية الثانية، مما يجعلها أقدم من أوائل المنقوشات الفينيقية.

والواقع أن عربا من قبائل قدر ومدين ونبط سيطروا على صحراء شبه جزيرة سيناء بكاملها قبل أربعة آلاف عام. ولأن سيناء كانت بذلك مغلقة فى وجه القوافل المتجهة برًا إلى مصر، أرسل فرعون سفيرا للتفاوض مع ثلاث من النساء اللاتى حكمن تلك القبائل من أجل فتح طريق تجارى.

وعقد الاتفاق كاتب من كتاب الحاشية ودونه بالهيروغليفية. ولكن لم تلبث قبيلتى قدر ومدين أن تمردتا على الفرعون بسبب عدم الوفاء بأحد بنود العقد ونهبتا قافلة حيثية ضخمة فى طريقها إلى منف، بينما رفضت نبط الاشتراك فى ذلك العمل الانتقامى.

وقالت زينب، شيخة نبط، مبررة رفضها: "أسر المصرى كلمتى، فلا توجد قوة تجبرنى على نقضها".

ومن سخطهن أعلنت قدر ومدين الحرب على نبط ونجحن فى طردها من سيناء إلى المنطقة التى شهدت فيما بعد نشأة مدينة البتراء، عاصمة مملكة الأنباط.

ولكن زينب لم تستسلم، فكانت مقتنعة من دراستها للكتابة المصرية والأكدية أن الكتابة فن سحرى يثبت الماضى بطريقة لا رجعة فيها. وسريعا ما قادها هذا الاعتقاد لتخيل إمكانية أسر الحاضر أيضا وفى نفس اللحظة التى يقع فيها الحدث، وبالتالى إيقاف مرور الزمن.

ولكن تقنيات الكتابة المتاحة عندئذ كانت معقدة جدا، وتكونت من خطوط كانت من التصنع والتكلف بحيث كان من المستحيل على الكاتب أن يدون الحدث فى نفس لحظة وقوعه. هذا بصرف النظر عن الكتابة المسمارية التى تطلبت إسفينا وألواحا طينية تحتاج إلى الحرق فى الفرن. وعملت زينب على تبسيط الكتابة إلى حد كبير إلى أن اخترعت الأبجدية، مما جعل فن الكتابة أسرع من قبل. وكانت زينب قد نقشت النقوش السيناوية المذكورة أعلاه قبل أن تطرد من سيناء.

ولم تتوقف زينب عند هذا الحد، فطورت الكتابة من النظام ذى الحروف المنفصلة عن بعضها بعضا إلى طريقة النسخ. وتستخدم هذه الطريقة فى معظم اللغات، لأنها أسرع الطرائق المعروفة فى الكتابة.

ولم تكتف زينب بذلك، فطورت نمطا من الكتابة ليس من الضرورى فيه إعادة كتابة أى حرف للمرة الثانية، حتى عند تكراره فى كلمة أخرى. من الصعب وصف قواعد هذا الأسلوب الثورى، ولكن من السهل تصور أنه يتفوق بكثير على أنظمة الكتابة المعروفة لدينا من حيث السرعة.

وهكذا تمكنت زينب من تحقيق التطابق الزمنى بين الأحداث والكتابة. وبعد تدريب شاق تضمن على تنمية المهارة فى رسم العلامات فى الرمل باستعمال قصبة، استطاعت أخيرا أن تدون الأحداث فى نفس لحظة وقوعها.

وبهذا توقف الزمن. أما ما حدث بعد ذلك (ونحن جزء من هذا التاريخ) فهو شذرات تافهة وأحداث لا أهمية لها لم تكن جديرة باهتمام زينب، ولذلك لم تدونها بحروفها التطابقية.

وبالطبع هناك من يشكون فى صحة هذا كله. ولكن أكبر دليل على وجود الأبجدية التطابقية هو عدم وجود أى أثر لها اليوم. كما لا توجد أى إشارة ولا أى دليل على وجود زينب ملكة الأنباط.

(ن)
نون
الحرف الخامس والعشرون
كرقم : ٥٠
بالتسلسل : الرابع عشر
أول حرف فى "نهر" و"نهد"

"الملحد لا يؤمن بالشيطان"
ـ العرافة العرجاء

كان جدى نجيب يحس بمشاعر غامرة كلما أنشد قافية القاف، وعادة ما كان يقوم واقفا من كرسيه الهزاز عندما يصل إلى الجزء الخاص بخندق الكلاب، وهو الذى يصف النزال الثانى بين الغطاش وذى السيوف، وهو النزال الذى كاد أن يفوز فيه الشاعر بثلث ليلى.

وكانت البداية عندما طلب الشاعر الماء والطعام لناقته بعد أن سمع شروط المثنى، وبعد أن وصف لأبناء غراب بالتحديد مكان العرافة العرجاء. كانت له رغبة شديدة فى أن يضل هؤلاء القوم فى

صحراء السراب وألا يصلوا لواحة الرمال. وبعكس نبوءة العرافة، كان متأكدا من استطاعته الحصول على ليلى دون أن يحل لغز القاف.

ولابد أنها كانت حيلة من حيله، لأن الغطاش اغتنم فرصة انشغال غراب بإعداد سروج الإبل (فقد كانت المسافة طويلة جدا على الخيل) ودار حول المخيم بسرعة متجها إلى خيام النساء.

يحب الشعراء المصادفات، ولذلك وصل الغطاش فى نفس اللحظة التى خرجت فيها ليلى من خيمتها مرتدية خمارها، فى صحبة عدد من عماتها وبناتهن الصغار.

- "عيناك بدران أسودان يرصعان سماء ليلة بيضاء".

بَيْدَ أن فرس ذا السيوف حجب ليلى عن عينى الغطاش.

وصاح الشاعر: "كلب وابن كلب!" ولم يكد يسل سيفه حتى كان ذو السيوف واقفا أمامه وفى كلتا يديه سيف. وجرى مكاريوس مبتعدا ليتجنب المأساة التى كانت على وشك الحدوث، ولكن رجال غراب أحاطوا بثلاثتهم.

- "لقد دعا ذا السيوف بالكلب. ليكن هذا إذن نزال خندق الكلاب".

وكان اللقاء فى عش الصقر، بين أنقاض الحصن. كان هناك خندق محفور فى الرمال له جدران حجرية، يبدو أنه كان سجن الحصن.

نزلا إذن فى الخندق ومع كل منهما عصا خشبية. وبينما كانا محصورين كل فى زاوية، كان عليهما أن يواجها أحد عشر كلبا متوحشا تحرش الرجال بها بقسوة قبل أن يطلقوها فى الخندق. وكان الفائز أول من استطاع أن يقتل ضعف عدد الكلاب التى قتلها غريمه. هذا إذا لم يهلكا معا.

وهاجم أول الكلاب الغطاش، وفى نفس الوقت تقريبا جرى اثنان آخران باتجاه ذى السيوف. ولا أحد يعرف إن كان ذو السيوف قد استشعر ما كان على وشك الحدوث أو إذا كانت هناك حيلة ما، لكن الواقع أن فارس غراب قسم عصاه نصفين بركلة عنيفة من قدمه.

وبشطرين حادى الأطراف، استطاع ذو السيوف أن يطعن كلبين فى الرقبة قبل أن يجهز شاعر اللبؤة على كلبه الثانى.

مؤشـــر:
الأعشى

أى تشـابه كان يمكن أن يوجد بين الغطاش وميمـون بن قـيس؟ هذا الأخـيـر المعـروف بالأعشى كان شـاعـرا مـصـابا بقـصـر النظر (وزعم البـعض أنه كـان أعـمى)، وكـانت موهبـتـه الشـعـرية متفـوقة لدرجة أن بيتا واحدا من أبياته كان يساوى مئة بعير.

كـان ينتمى لقبيلة بكر المسيـحية، وعـرفت عنه خصلتـان: أنه لا يُبـارى فى الهـجـاء، ولا يُغلب فى الشــراب. وكـان يحج إلى قــبـره سكارى الجزيرة ليسكبوا الخمر على شاهده وليحيوا ذكراه.

وقـيل إن الأعـشى جمـع أكبـر ثروة ذاتيـة عـرفت منذ زمن ملكة سبـأ، وطال عـمـره حتى عـاصـر النبى ﷺ. وذات مـرة قـابله أبو سفيان، عم محـمـد وعـدوه، وسـأله عن وجهته فقال إنه ذاهب إلى المدينة لكى يمدح المسلمين بقصيدة من شعره.

خاف أبو سفيان أن تساعد مساندة الشاعر على نشر الإسلام، فقال:

- "هذا الدين لا يناسب الأعشى، فسيكون عليك إن أسلمت أن تقلع عن أشياء كثيرة، كالنساء، على سبيل المثال."

فرد الأعشى وهو يفرك يديه المتجعدتين:

- "فى سنى هذه النساء هن اللاتى يتركننى".

قال عم الرسول مصرا:

- "والميسر".

- "أستطيع أن أسلى نفسى بإدلاء النصائح للآخرين".

- "والخمر".

- "سأشرب بدلا منه الماء من العين التى تشرب منها إبلى".

نظر أبو سفيان لأصحابه نظرة لها مغزى وقال:

- "يا قريش، هذا هو الأعشى! اجمعوا له من الإبل ما يُنضب الماء فى عينه!"

كان باستطاعة الأعشى أن يسخر من كل شىء، ومعلقته هى الوحيدة التى كادت أن تهجو عادة الشعراء فى البكاء على الأطلال:

علّقتها عرضًا وعلقتْ رجلاً غَيرى وَعُلّقَ أُخرَى غيرَها الرّجلُ

ولا تتلخص مزايا الأعشى فى ذلك، فكانت مقدرته على الوصف رائعة ومتفردة. وقيل إن شدة قصر نظره كان لها تأثير على هذا الأسلوب.

وذات مرة شبه زحف جموع الفرس فى معركة مع الروم بهبوط الليل على امتداد الأرض، واستطاع أن يميز الجنود لأن بعضهم كان

يرتدى قروطا ذهبية تلمع مثل اللآلئ المخبأة فى محار لم يمسه الطين.

يتتابع الضوء المتألق والظلمة فى هذه الصور التى لا تحتوى على أشكال محددة. وجعلت هذه النزعة من الأعشى أول شاعر بدوى يصف امرأة بوصف يمكن المستمع من التعرف عليها بعينين مغمضتين:

غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها   تَمشِى الهُوَينا كما يَمشِى الوَجِى الوَحِلُ

...

تَسمَعُ للحَلىِ وَسْوَاسًا إذا انصَرَفَتْ   كمَا استَعَانَ بريحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

...

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعشبةٌ   خَضرَاءُ جادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هَطِلُ

...

يَوْمًا بِأطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ   ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأصلُ

لابد لأبيات كهذه أن تكون لشاعر قصير النظر. المرأة الموصوفة اسمها هريرة، ولكنى لم أستطع أن أكون انطباعا عن شكلها إلا عندما درست الشعراء الآخرين الذين وصفوها بطريقة أكثر دقة، وأكثر تحديدا، وأكثر ألفة. فحتى عندما كانت مشعثة ورثة الهيئة فى حدادها، كان الرجال يتعثرون فى خطاهم كلما خرجت من خيمتها.

وتعثر الأعشى بدوره، إلا أنه كان أعمى. ولم يكن من الممكن إلا لأعمى أن ينصرف عن جمال وجهها وتناسق جسمها ليصف عطرها.

(س)

سين

الحرف الثانى عشر

كرقم : ٦٠

بالتسلسل : الخامس عشر

أول حرف فى "سن" و"سيف"

"الملذات أربعة: الضحك، والطعام، والحب، والمعرفة"
ـ الغطاش

ظن المحتالون أنى هُزمت، ولكنهم لم يعرفوا بطشى بعد. سأزأر مثل الأسد المنقض على قطيع من الظبى، وسأقتل مثل اللبؤة التى تهوى ببراثنها على ظهر حمار وحشى، وستأكل غراب الجيفة مثل الضباع، وسأكشف عن وجه ليلى!

تركت عش الصقر ومضيت فى الصحراء حاملا معى الراهب واللغز. وهتفت القبائل ترحابا بى كما لو كنت أميرا فارسيا، وفرت الوحوش من طريقى كما تفر من الأفيال الهائجة، حتى وصلنا إلى يثرب، حيث استقبلنا كلب ضال.

شققت طريقى فى شوارع المدينة. وفى السوق، شرب مكاريوس خمرا مفلفلا حتى ثمل وكاد يسقط فى قدر لثريد الضأن. فضلت مشاهدة الراقصات، ولكنى كنت قد أقسمت ألا أغسل فمى أو جسمى. وألا أمس الطيب أو الكحل، وألا آكل إلا التمر، وألا أشرب إلا الماء، حتى أحصل على ليلى.

أوقفنى مكاريوس أمام كنيس يثرب قائلا :

- "هذا معبد بنى إسرائيل وفيه رجال علم".

سمح له بالدخول رجل مسن يدعى عبد الرب. وأخذ مكاريوس معه الخرج وفيه اللفائف المكتوبة ولوح الأب شكور، ولكن عبد الرب حاخام يثرب لم يستطع قراءة العلامات.

- "إذن اعثر على من يستطيع".

وارتجف عندما نزعت الخرج من يده وألقيت بالرقوق فى الطريق. حاول مكاريوس إنقاذها وتجرأ على الإمساك بذراعى.

- "لا تفعل هذا! إنه إنجيل مَتى الذى ترجمه الأب شكور!"

امتنعت عن ضربه بهراوتى ودفعته قبالة حمار وقلت: "سأنتظر عند باب قباء، خارج مكة، وإن حاولت أن تترك المدينة دون اللغز فلن أذهب فى أثرك، بل ستلحق بك سهامى".

وعدت بعد أحد عشر يوما. ظننت أن غرابًا ستتجه إلى مكة مباشرة، ولذلك كنت فى عجلة. لم أجد لمكاريوس أثرا، فلم يبق أمامى إلا الذهاب إلى الكنيس.

بدا عبد الرب أكثر نحولا وأكبر سنا، لكنه كان قد فسر اللوح. وكان مكاريوس كالهيكل العظمى وهو جالس يرسم حروفا على جلد نعجة بجوار الكلب الذى اتبعنا منذ دخولنا المدينة.

- "فسرت كل شىء حتى آخر كلمة، لكنى لا أفهم معناه".

وقرأ مكاريوس اللغز فلم أفهم منه شيئا، كما يحدث عادة مع مثلى من الشعراء الذين اعتادوا أن ينصت الناس إليهم، لا أن ينصتوا هم للآخرين.

رفض عبد الرب دينارى الذهبى، ولم أبحث عن وسيلة أخرى لشكره. رأيت فى إحدى عينيه إشفاقه على الراهب، وفى الأخرى سعادة من استطاع أن يفعل المستحيل.

خرجت من المعبد وذهبت لأسرج ناقتى. وفى الطريق الصحراوى أتيت على خيام صالح المتعطشين أكثر من أى وقت مضى لسفك دماء غراب. وشعرت باليأس لما رأيت فتاة على وجهها المرح تجلس فى خيمة امرأة يغطى الوشم يديها ووجهها وتبتسم لى بخبث.

كانت الملذات أربعة، وكانت ليلى الوحيدة التى تستطيع أن تمنحنى آخرها، وجذبت مكاريوس من ذراعه قائلا:

- "هيا بنا. لا بد أن فى الصحراء حكماء يحلون الألغاز".

استطـراد :
المرأة التى قسمت على الصفر

لأن العرب أهل شعر، كان من الطبيعى أن يكونوا أيضا رياضيين عظماء. وحصلوا حتى فى العصر الجاهلى على معرفة واسعة فى علم الفلك كانت ضرورية جدا للترحال فى الصحراء. ولهم أيضا اختراعات أخرى: ابتكروا علم المثلثات، واكتشفوا الجبر بمفردهم، وطوروا أهم مفهوم حسابى، وهو الصفر. وأستطيع أن أؤكد أن هذه الإنجازات ترجع لشخصين فقط، أحدهما هو الخوارزمى الشهير.

ولكن الكتب لا تذكر قصة مالكة ابنة منصور بن سرجون الذى انحدرت أمه من قبيلة اللبؤة. ولدت مالكة وتربت فى دمشق، وكانت تعرف الغزل والطبخ وركوب الخيل والرمى بالسهام والعزف على العود وتحفظ جميع الشعراء وتتكلم وتكتب بسبع لغات وتحسب بمهارة عالية جدا يصعب تصديقها، ولهذا لم تشتهر بهذه المقدرة.

وتحكى القصة - أو قل الأسطورة - أن البداية كانت فى سنة ٨٥٦ ميلادية، أثناء مباراة فى الشطرنج أقيمت فى قصر الحاكم بدمشق، حيث كان أبو مالكة - وهو مسيحى أرثوذكسى - يعمل سكرتيرا للحكام المسلمين الجدد.

وكان المتباريان هما أعظم لاعبين فى ذلك العصر: الأرمنى هاجوب واليهودى زييف. وكان المتفرجون أربعة رجال ذوى خبرة باللعبة، فراهن كل منهم باثنى عشر دينارا ذهبيا. قدر أولهم أن الفوز سيكون للقطع البيضاء فى الحركة المئة والواحد، وحسب الثانى أن النصر سيكون للقطع السوداء فى الحركة المئة والاثنين، وظن الثالث كذلك أن القطع السوداء ستغلب ولكن فى الحركة المئة والثلاثة، واعتقد الرابع أن القطع البيضاء ستنتصر فى الحركة المئة والأربعة.

وفجأة، اندفعت مالكة من خلفهم جميعا وأكدت أن حصار الملك سيكون للقطع السوداء فى اللعبة المئة والخمسة، ثم ألقت بنفس المبلغ - اثنى عشر دينارا ذهبيا - على الأرض. وبذلك اجتمع على الرهان ستون دينارا.

ضحك العلماء الأربعة والحاكم والمتفرجون الآخرون من هذه السفاهة الصبيانية. لكن المباراة انتهت فى اللعبة المائة والخمسه بفوز القطع البيضاء. وعندما انحنى العلماء الأربعة ليعدوا دنانيرهم الاثنا عشر - حيث إن أحدا لم يصب فى توقعاته - أسرعت مالكة بالمطالبة بالمبلغ.

ـ "الستون دينارا من حقى، وأستطيع إثبات ذلك بسهولة".

ـ "لقد راهنتِ على القطع السوداء، ولكن البيضاء فازت".

ـ "ليس الأمر كذلك. فى بداية اللعبة. كان هناك خمسة مراهنين دفع كل منهم اثنَى عشر دينارا. واستمر هذا الوضع حتى الحركة المئة. وبعد الحركة المئة والواحد، خسر أحد المراهنين، وبقى لكل من الأربعة الآخرين خمسة عشر دينارا. وبعد الحركة المئة واثنين، أصبح لى ولكل من الاثنين الباقيين عشرون دينارا. وبعد المئة والثلاثه، تبقى لى ولأحدهما ثلاثون دينارا. ولما أخطأ تقدير المراهن الأخير فى الحركة المئة والأربع، أصبحت الستون دينارا بكاملها لى".

استمر النقاش، ويبدو أن مالكة اعترفت بأن أحدا لم يكسب الرهان.

ـ "بما أن أحدا لم يكسب الرهان، ينبغى علينا أن نقسم الستين على صفر: ٦٠ ÷ ٠ = ٠ . ليست الستون دينارا لأحد".

وحسب اقتراح منصور، دفعت الدنانير التى لا يملكها أحد إلى الحاكم فأمر بتوزيعها على الفقراء. لكن مالكة لم تلبث على رضاها بهذا التفسير لمدة طويلة حتى أدركت أن هناك خطأ ما فى الحسبة. ففى الحقيقة، ٦٠ ÷٠ = ٠ ، و٦ ÷٠ = ٠ ، و٦٠٠ ÷٠ = ٠. وإذا طبقت القواعد الرياضية بطريقة سليمة، يكون الصفر المربع يعادل ٦٠، أو ٦، أو ٦٠٠، أو أى رقم آخر، وهذا بالطبع غير صحيح.

وعندئذ أعلنت مالكة أن كل رقم مقسوم على الصفر يساوى نفسه. حيث إن القسمة على الصفر تعادل عدم القسمة.

وهنا بالتحديد بدأت متاعب مالكة، فسرعان ما أدركت أن كل رقم يقسم على الواحد أيضا يساوى نفسه، وبالتالى فإن الصفر والواحد هما نفس الرقم. ويترتب على ذلك أن الإيمان بإله واحد يعادل عدم الاعتقاد بوجود أى إله.

وحتى لا يقتلوها بتهمة الكفر، أمر منصور بأن تحبس ابنته فى البيت. لكن هذا لم يمنعها من نشر هرطقات أخرى عن طريق الإماء اللاتى كن يخدمنها. مثل الفكرة التى نفت صحة معجزة تكثير الأرغفة للمسيح.

وفى الحقيقة أن مالكة لم تعد تؤمن بالكسور، فالوجود فى نظرها كان يحتوى على أرقام سليمة فقط، ولم تكن الكسور أرقاما بالمعنى الصحيح، بل تعبيرا عن تباين الأحجام. فعندما نقول نصف رغيف، يكون المعنى بذلك رغيف حجمه نصف حجم رغيف آخر. وبهذا إذا قسمنا رغيفا لجزئين لا ينتج عن ذلك شطرين، بل قطعتين من الخبز، وقطعة من الخبز هى أيضا خبز. ولذلك فإن القسمة ضرب، والعكس بالعكس.

ولا شك فى أن المسيح قسم الأرغفة، ولكن المعجزة كانت فى الكرم، وليس فى المضاعفة السحرية.

قد يبدو أننا ابتعدنا عن موضوع القسمة على الصفر، ولكن هذا غير صحيح. ففى الحقيقة لم تلبث مالكة أن لاحظت أن هذه

النظرية تصح فقط عندما يكون البسط معادلا لواحد، ومكنها هذا الاكتشاف الحاسم من العودة إلى مشكلة حساب الكسور بشكل عام.

لفتت انتباهها خاصية عدم التناسق بين البسط والمقام، حيث ازدادت قيمة الكسر كلما ارتفعت قيمة الأول وانخفضت قيمة الثانى، ونقصت قيمة الكسر فى الحالة المعاكسة.

وترتب على ذلك الآتى: أولا، إذا كان البسط صفرا، يكون للكسر أصغر قيمة ممكنة، أى صفر. ثانيا، إذا كان المقام صفرا، تكون القيمة أكبر ما يمكن، أى تعادل أكبر عدد من الأشياء المعدودة فى الكون، وباختصار الرقم النهائى(±).

وتقدمت مالكة فى السن وضمرت ومرضت وواجهت بعناد الحرمان الذى فرضه عليها أبوها، وواصلت محاولاتها لحساب الرقم النهائى. ولاحظت أن الكميات الهائلة التى لا يمكن قياسها تبدى سلسلة من التشوهات، كما هو الحال فى الكميات الصغيرة جدا (فعلى سبيل المثال، ١ ليس عددا وتريا ولا شفعيا، ٢ عدد أولى وشفعى، وضعفه يساوى مربعه، ٣ عدد أولى يتبع عددا أوليا آخر، إلخ).

(±) يرى أتباع المذهب الذرى أن ذلك الرقم هو مجموع الذرات الموجودة فى كل الأجسام الحية والجامدة التى ستجتمع يوم القيامة.

ولكنها مضت فى اكتشاف كميات أكبر وأكبر، وكانت على وشك الاقتراب من الرقم النهائى عندما ماتت فى ليلة مشؤومة، بينما كانت تعمل فى زنزانتها المظلمة والمخيفة وقد أشعثتها الرياح الباردة وساطتها الرمال التى اندفعت خلال شقوق الباب الضيق، فلم تقوَ على مقاومة الاضطرابات المروعة لتلك الأرقام الهائلة.

ولم يحس منصور بالذنب، فلم يكن مذنبا. كانت الأرقام الكبيرة هى التى قتلت ابنته، لأنها كانت لا تقبل القسمة على ١، ولأن جذورها كانت مطابقة لمربعها، ولأن المتتالية منها ظلت أرقاما وترية، ولأنها إذا جمعت أصبح حاصلها أصغر منها.

ع
عين
الحرف الثامن عشر
كرقم: ٧٠
بالتسلسل: السادس عشر
أول حرف فى "علم" و"عشرة"

"أحب فكرة المرأة، لا امرأة بعينها. هذه، أو تلك، أو غيرها، أى فرق بينهن؟"

– امرؤ القيس

أهم مساهماتى الأدبية فى دراسة قافية القاف هى اكتشافى للطريقة التى فسر بها حاخام يثرب نص اللغز.

ومثل معظم العرب فى ذلك العصر، لم يعرف عبد الرب قراءة أو كتابتها العربيه. ولكن الحاخام كان بالتأكيد يعرف العبرية، ولذلك لابد أن كانت لديه فكرة عن التشابه الموجود بين اللغتين.

لم يتوفر لعبد الرب ومكاريوس فى الكنيس الذى اعتكفا فيه من المراجع ما يساعدهما على فهم اللوح ولفائف الرق التى احتوت

على نسخة عربية لانجيل متى، مكتوبة بنفس العلامات المجهولة التى كتب بها اللغز.

ولابد أنه لم يصعب على رجل اعتاد على قراءة المخطوطات أن يكتشف أن تلك الكتابة تكونت من ثمانية وعشرين حرفا. لكن هذا لم يكن ليعنى شيئا إن لم يكن عبد الرب قد لاحظ أيضا أن تلك الحروف تظهر أحيانا منفصلة فى بداية بعض السطور أو مجموعة من السطور، أى أن الحروف المنفصلة استخدمت كأرقام لفصول الكتاب، تمامًا كما كان مصطلحًا عند الحاخامات[1].

ولأنه حاخام فقد كان مؤمنا بالقيمة الرقمية الباطنية لكل حرف، ولأنه آمن أيضا بأن ترتيب كل الأبجديات يتبع قانونا فوقيا، استنتج عبد الرب أن أول فصل فى النص رُقِّم بالعلامة التى وافقت أول حرف فى الأبجدية العبرية، وهلم جرا.

وعندما وضع العلامات الثمانية والعشرين المجهولة فى الترتيب الموجود فى لفائف الرق، وجد أن لاثنين وعشرين منها مقابل فى أبجدية اليهود، وبالتالى كان يكفى نقل النص الموجود على اللوح إلى الأبجدية العبرية:

ראס על שמס
רגל על שהר
עין על עשר
גדה על קף

(١) وبالمصادفة، يحتوى إنجيل متى على ثمانية وعشرين فصلا، وهو نفس عدد الحروف العربية. وتحتوى الأبجدية اليونانية على أربعة وعشرين حرفا، وهو عدد أناشيد الإلياذة.

وبذلك أصبح بإمكانه أن يفهم معظم النص:

... عـــلـــى ...

قـــدم على قـــمـــر

عـــين على عـــشـــر

حـــــــد عـلـى ...

وبقيت ثلاث كلمات بلا تفسير. لكن عبد الرب كان يعرف وجوه التشابه بين العربية والعبرية، وأن التباسا يحدث أحيانا بين نطق حرف "سامخ" (ס) وحرف "شين" (שׂ)، وأن كليهما يستخدمان فى "سلام" و"شالوم"، وفى "موسى" و"موشيه"، وفى "قدس" و"قوديش". إذن كان عليه فقط أن يستبدل سامخ بشين ليحصل على:

ראש על שמש

أى:

رأس على شـــمـس

لم تبق إلا كلمة واحدة، لم تكن بالتأكيد مصطلحا عبريا، ولكن كان باستطاعة الحاخام أن ينطقه هكذا: "قاف" - اسم الجبل الخيالى - مما يعطى إذن: "حد على قاف". وهذا معقول، فقد اعتقد العرب الوثنيون أن ذلك الجبل موجود فى آخر حدود الأرض.

وهكذا توصل عبد الرب إلى فك الرموز المجهولة. ولكن بعد أن كتب "قاف" تذكر أن "حد" (גדה)، المنطوقة "چده" بالعبرية تطابق اسم "جَدَه" بالعربية، على مثال "چمل" بالعبرية و"جمل" بالعربية.

ولا بد أنه تردد بعض الشيء، فكان الاثنان فوق قاف، فاختار الحل الذى بدا له مناسبا لتعويذة وثنية:

رأس على شمس

قدم على قمر

عين على عشر

جده على قاف

مؤشــر:
علقمة

تشابه علقمة والغطاش فى عدم اكتسابهما شهرة واسعة، وليس فى حياة علقمة أو أعماله شىء يمكن اعتباره موثقا، عدا بعض القصائد ذات الجمال المدهش (والحق يقال)، وحادثة واحدة ارتبطت "بيوم حليمة" الذى يعد من أكثر الفصول تعاسة فى التاريخ العربى.

فى ذلك اليوم، شنت قبيلة غسان حليفة الروم الحرب على قبيلة لخم حليفة الفرس واغتالوا شيخها غدرا.

وكانت حليمة الابنة العذراء لشيخ غسان الذى منحه الإمبراطور الرومانى لقب بتريسيوس، أو ملك. عرفت حليمة بممارسة السحر، واعتادت أن تعطر أفضل المحاربين فى جيش والدها بعطر يجلب عليهم حسن الحظ.

وانتصر البتريسيوس، وقُطعت رأس الشيخ الموالى للفرس. ولكن الغريب أن الجيش المنتصر لم يفقد إلا تسعة وتسعين قتيلا كانوا من المئة جندى الذين عطرتهم حليمة، أما آخر هؤلاء - وكان اسمه ماجد - فأخذ أخا لعلقمة أسيرا.

وقد تكون (أو لا تكون) هناك علاقة بين هذه النتيجة وما حدث أثناء طقوس التعطير التى سبقت المعركة، حيث تجرأ ماجد على جذب حليمة إليه وتقبيلها فى فمها قبلة عنيفة تركت فى شفتها أثرا لأسنانه.

واشتكت حليمة لأبيها الذى ضحك ووعد ماجد أن يزوجها له إن عاد حيًا من المعركة. وهنا تأخذ الحكاية انعطافات غريبة.

أكد أهل النميمة أن حليمة كانت تستقبل شخصًا مجهولاً فى خيمتها، وأن سحرها لم يعد مؤثرًا لأنها فقدت عذريتها.

واكتسبت هذه الشائعة بعض المصداقية عندما هجر ماجد حليمة فى فجر ليلة العرس بحجة أن من واجبه الثأر للتسعة والتسعين قتيلا. ثم قتل هو الآخر، فلا أحد يهرب من الموت مرتين.

ولم تكن حليمة قد اتخذت زوجا آخر عندما أتى علقمة للقاء شيخ غسان (وكان علقمة يلقب أيضا بالفحل، نظرا لهزيمته لامرئ القيس فى مسابقة ذكورية). جاء علقمة ليفدى أخاه الأسير لدى البتريسيوس، ولأنه كان فقيرا (أو بالأحرى بخيلا) فقد أنشد أحسن أشعاره عوضا عن المال.

وفى تلك القصيدة يصف بشكل مبهم امرأة تفوح منها رائحة الزعفران التى تعلق بالجو بعد رحيل الإبل. ورجل مجنون يحاول أن يتبع أثرا فى أرض صخرية، ورداء ضيقا عند الفخذين، وظبيا أليفا رُبى فى اصطبل.

يصف علقمة فرسه الصلب كأنه حجر يجرفه التيار على مجرى النهر، وله شفتان مثل شفاه الإبل يصبغها الخباز الأخضر الذى يرغى على ذقنه، ثم يشبهه بالنعامة التى تبحث عن فرخها فى الصحراء. وتستمر القصيدة بعدد من الأمثال الحكيمة ومشهد فى حانوت ووصف آخر لشجاعته وإقدام فرسه.

وانتبه البتريسيوس بالتحديد لمقطع يجتاز فيه الفارس صحراء متقلبة وهو مرتاع، ويتبع طرقا متقاطعة كخيوط العنكبوت فى ليل متموج، مستدلا بجبال تشبه هياكل السفن المهجورة، ويمر بعظام بيضاء خرقت جلود الجثث التى لم توار التراب.

وكانت الأبيات الأخيرة فخا، فقد مدحت كرم أبو حليمة وعرفت بالشاعر كعدو أتاه وحيدا.

ولأنه أراد أن يكون جديرا بهذا المديح، أطلق البتريسيوس سراح أخى علقمة. غير أن الشاعر اختفى منذ ذلك اليوم ولم يره بعدها أحد، وزوجت حليمة لعبد أعتقه أبوها قبلها بساعات.

ويبدو أن البتريسيوس كان عليما بصحراء مملكته، وكان يظن أن الجبال تشابه هياكل السفن الغارقة، كما اعتاد على رؤية الجثث التى تخترق العظام جلودها المتحللة. وكان أيضا يستدل على مكان

حليمة من رائحة الزعفران التى تعطرت بها، حتى بعد رحيل الإبل. كما أنه أعجب كثيرا بفرس الشاعر الصلب مثل الصخور التى يجرفها النهر فى قاعه، والخفيف الحركة مثل النعامة التى تنقب عن فراخها.

ولا أحد يعلم كيف اكتشف البتريسيوس أن من اقتحم خيمة حليمة وتسبب فى قتل التسعة والتسعين محاربا كان علقمة الفحل.

ولو كنت فى محله لتوصلت لنفس الاستنتاج.

هراء ما يقال عن عدم وجود أدلة على ذلك، أو إمكان أن يكون من فعل ذلك أى شاعر آخر، أو أن كل الصحراوات تتشابه، أو أن كل الأفراس تتشابه، أو أن كل النساء تتشابه.

لم يحصل علقمة على شهرة واسعة لأنه لم يُضع الفرصة لإهانة ملك.

(ف)

فاء

الحرف العشرون

كرقم: ٨٠

بالتسلسل: السابع عشر

أول حرف فى "فقير" و"فاض"

"لا يتوصل الحكماء الحقيقيون أبدا للسعادة"
ـ الغطاش

فى مكة، وفى شهر الحج، كانت الهدنة قانونا مقدسا. ومع ذلك حملت سيفى فى غمده، فلا أثق فى عهد من قتلت ذويهم.

وسارت القبائل متجهة إلى الكعبة. مررت بخيام صناع السهام، وبائعى العرق، والواشمين الجالسين أمام قصبهم وأوعية الحنة، وصانعى المساحيق من بول الإبل، وماشطى الصوف، والحدادين، والغزالين، وبائعى السروج وأطقم الخيل والسجاد والعطور والبهارات.

ودخلت مكة ولم أشرب الخمر ولم أغتسل. كانت الشوارع مكتظة بالناس يصعب المرور فيها، واندمج مكاريوس فى الضجة المحيطة بالحكاوين.

- "لا ينبغى للبؤى أن يدخل مكة، فهى مدينة وثنية".

ذلك الراهب أبله. لم يكن لدى وقت للرد عليه.

- "أين الستمائة والستون بعيرًا أيها الكلب ابن كلاب اللبؤة؟"

كانوا رجالا من غراب ينتظرون مهر صباح وليلى. نظرت حولى فلم أر أبناء عمى. لم تدخل صالح مكة لنفس السبب الذى منع مكاريوس. كان سيفى فى غمده، ولكن كنا فى الشهر الحرام.

لم أرد على الشتيمة وواصلت المشى باتجاه الكعبة. لم يكن من السهل اختراق الحاجز البشرى للوصول إليها، وأشفقت على الحيوانات التى كانت ستنحر، ثم استطعت المرور خلال جمع من البدو كانوا بصدد ذبح أحد عشر بعيرا. وعندئذ فقط تذكرت أن ليس لدى شىء أضحى به عند الكعبة.

أدرت رأسى بسرعة بحثا عن مكاريوس الذى كان معه زاد من تمر، ومنعتنى البخور الكثيفة من الرؤية، فكان علىّ أن أغادر الحرم سائرا بعكس اتجاه جموع الحجاج.

ولمحت مكاريوس بعدها بساعة عند حدود المدينة، وكان بجانبه رجل واقف يتأمل وهو يحدق فى السماء.

- "هذا أبو هلال مستشار أمراء اليمن، ويستطيع قراءة النجوم. لقد أكل التمر الذى كان فى خرجك".

- "كلب وابن كلب!" وأومأت بسيفى إلى صدر الحكيم. ولكن فى تلك اللحظة دوى زئير الأسود فى الصحراء، فقد وصلت قبيلة اللبؤة إلى مكة. وفى لمحة واحدة عددت ستمائة وستين بعيرا. وبهذا توفر أول شرط من الشروط الثلاثة.

استطراد:
الكرة الفينيقية

دامت أطول حرب فى التاريخ أربعمائة عام بالضبط، وبالطبع كانت حربا بين العرب، واشتركت فيها كل القبائل. ومن الصعب ذكر كل تلك القبائل وعدد المرات التى انقسموا فيها وانقلبوا من طرف لآخر.

كل ما نعرفه (إن لم تكن أسطورة) أن تلك الحرب جرت بين القرن السادس والثانى قبل الميلاد، وأن وازعها كان امتلاك الكرة الفينيقية.

ويقال إن تلك الكرة سرقت من قبر حيرام ملك صور وصديق سليمان، وكانت آلة جديرة بالذكر من صنع عالم يمنى كان من وفد ملكة سبأ لبنى إسرائيل.

وكانت عبارة عن كرة معدنية كثيفة رسمت على سطحها بدقة جديرة بالإعجاب خريطة العالم المعروف فى ذلك الحين وأماكن البلدان التى ستكتشف فيما بعد.

وأحاطت بالكرة المعدنية كرة أخرى من الكريستال متمركزة عليها، وبين هاتين الكرتين وجدت طبقة كثيفة من سائل عديم اللون ذى تركيبة مجهولة. سبحت فيها ذرات معدنية دقيقة. وإذا دققت النظر رأيت أن تلك الذرات التى لا حصر لها كانت على شكل الحروف الفينيقية الاثنى والعشرين.

وكان سر الكرة فى هذه الحروف بالغة الصغر. قلت إن هذه الحروف سبحت فى السائل الكثيف، ولكن هذا ليس وصفا دقيقا: كانت فى الواقع تدور دورانا مستمرا وعشوائيا وفائق السرعة، وتصطدم بعضها ببعض مما يغير مسارها دائما وبلا نهاية.

قد يعترض الفيزيائيون اليوم قائلين إن الطاقة المفقودة فى تلك الارتطامات ستؤدى بالتدريج للسكون، وقد يكون هذا صحيحا إن لم يكن الأمر يتعلق بالفينيقيين، فكانت هذه الكرة بمثابة الاختراع الإنسانى الوحيد الذى حقق فكرة الحركة المستديمة فى آلة تعمل بلا انقطاع ودون مصدر طاقة خارجى، ولكن هذا بحد ذاته لم يكن سبب تنازع القبائل عليها.

فمن دقق النظر فى نقطة بذاتها على خريطة العالم المرسومة على الكرة كان باستطاعته رؤية تلك الحروف المعدنية الصغيرة تمر أمامه على هيئة كلمات وجمل وفصول كاملة فى كتاب تاريخ لا نهاية له، تماما مثل كتاب «ألف ليلة وليلة».

لا أحد يعرف إن كان الملك سليمان، أو حيرام بنفسه، أو ملكة سبأ، أو الحكيم اليمنى أول من لاحظ أن التاريخ الذى ترويه

الحـروف لكل مكان على الخـريطة كـان يطابق الوقـائع التى حـدثت فى ذلك المكان بالتحديد فى تلك اللحظة.

وإن راود القارئ الشـك فيمـا قلته أعـلاه عن وجود خـريطـة كاملة للعـالم فى عـصـر حـيـرام، فـإنى أؤكد له أن القـصـص التى كـونتـهـا الحروف كانت تشى بما يحدث فى كل مكان على سطح الأرض.

سـرق الكرة فى أول الأمـر زمـرة من البـدو بقـيـادة أحـد أجـداد الغطـاش واسـمـه أسـد. وظن أسـد أن بإمكانه العـثـور على مـعـادلة رياضـيـة تمكنه من التنبـؤ بمسـار كل حـرف، وأراد بذلك أن يحسب مستقبل كل مكان على وجه الأرض ويتعـرف عليه.

ولكن لم يلبث هؤلاء أن هاجمهم عرب من قـبائل مختلفة أرادوا، انطلاقـا من نفس المبدأ، أن يكتـشـفـوا المسـارات السـابـقة لكل حـرف والارتطامـات التى نتـجت عنهـا. وهـكذا بالتقـهقـر حتى الوصـول إلى الحركة الأولى لأول حـرف، والتعـرف بذلك على أصل الكون.

وعلى مدار أربعمائة سنة، انتقلت الكرة من جانب لآخر بالتوالى، دون أن يكتـشـف أحد المعـادلة الرياضـيـة. وفـى إحدى تلك المناوشـات ضـاعت الكرة ودفنت فى الرمال فى مكان ما من صـحـراء الجـزيـرة.

وتوافقت نهاية الصـراع مع ظهور ملة اللانهائية التى لم يكن لدى أتبـاعـهـا الوقت لعـبـادة عـدد لانهـائى من الآلهـة، ولذلك لم يكتـرثوا بقراءة الماضى أو المستقبل، وأعلنوا أن الكرة الفينيقية كانت كتابا لا يتوقـف ولا يكتمل، وأنـه ناقص ليس فيـه علم حـقيقى، ولا يؤدى لأى استنتاج، وأن فـائدته الوحـيدة هى مـعـرفـة أنه من بين الآلهـة التى لا حصـر لهـا، لابد أن إلاهـا واحـدا على الأقل سيعفو عنك.

(ص)
صاد
الحرف الرابع عشر
كرقم: ٩٠
بالتسلسل: الثامن عشر
أول حرف فى "صخر" و"صحراء"

"لابد لك من قراءة ألف كتاب حتى تستطيع أن تقول ما هو بديهى"

ـ مالكة التى قسمت على الصفر

انتظرت حتى غاص آخر شعاع للشمس فى البحر الأحمر لأضع خنجرا فى حزامى. تلثمت بعمامتى كما يفعل لصوص بابل واتبعت رائحة المسك المنبعثة من شعر ليلى.

حتى الإبل المقطعة أوصالها تثير انتباه الكلاب، ولكنى لم أسمع نباحا عندما وصلت لخيام غراب. ليست الأفاعى بهذا الدهاء، ولا الجرذان بهذا الخبث، ولا العقارب بهذه الإماتة. وظهرت خيمة ليلى أمامى.

ودون ضجيج شققت بخنجرى باب الخيمة المصنوع من خيوط الشعر المجدول. وفى وسط السجاد الفاخر، وصناديق الأبنوس، والمصابيح المذهبة، دلنى العطر على وجود ليلى. قررت أن أشيح الستائر الملونة التى حجزتنى عن وجهها المرام، ولكن عندما سقطت كلها على الأرض وجدت أمامى ذا السيوف:

- "وقعت فى الفخ يا كلب اللبؤة! عليك أن تهزمنى فى نزال آخر!"

وحتى لا ينتهك الشهر الحرام، قررت القبائل أن تكون المبارزة كلامية الفائز فيها من سأل سؤالا لا يستطيع أهل الحكمة الإجابة عنه. نظرت ورأيت أبا هلال وبطنه ممتلئة بتمرى بين الحكماء.

وبدأت: "ما هو القاف؟"

- "جبل دائرى عند حدود الأرض لم يره أو يمسه بشر".
- "ومن جَدَه؟"
- "عفريت ضخم له عين واحدة عمياء، وقفز ذات مرة من فوق القاف".
- "وما ملَكة جَدَه؟"
- "رؤية الماضى لكى يدلى بشهادته ضد البشر".

وقاطعونى لكى أترك الدور لذى السيوف.

- "من أجمل النساء؟"
- "تلك التى لا تعرفها".
- "وما الحب الذى لا يفنى؟"

- "ذلك الذى لا يُستهلك".

- "وما المطلوب للدفاع عن الحب والجمال؟"

- "سيفك ويمناك".

عندئذ نزع ذو السيوف سيفه بيده اليسرى. لم تسنح الفرصة لناقة من نياق القبيلة أن تزعق، ولم أر إن كانت الرأس قد وثبت من الجسم، أو كان الجسم هو الذى هوى من الرأس.

مؤشــر:
عمرو بن كلثوم

حتى الغطاش لم يبلغ فى غروره غـرور عـمـرو بن كلثوم الذى التقت فى نسبه سلالتان عظيمتان من الشعراء. ولا شك أن عَمْرًا عـزا مجده إلى هؤلاء الأسلاف، كما الحال فى الخيول العربية الأصيلة، ولكن الفضل فى شهرته يعود لناقة امرأة عجوز.

هاهى شخصيات الحبكة: الناقة سراب، والبسوس صاحبة الناقة وكانت من قبيلة تميم، وجساس البكرى ابن أخت البسوس وكان من قبيلة وائل المسيحية، وكليب التغلبى شيخ وائل.

كانت بكر وتغلب تتقاسمان مخيما واحدا عندما ربطت البسوس سرابا بوتد أمام خيمة جساس، ولكن سرابا أعجبت بإبل كليب الجميلة فحررت نفسها وذهبت لتتضم إليهم.

لم يتعرف كليب على ناقة البسوس وحاول قتلها، لكن السهم أصاب ضرعها الممتلئ.

أعـولـت ســراب من الألـم وركـضـت تاركـة وراءهـا أثـرا من اللبن المختلط بالدم وعادت إلى خيمة جساس.

- "عار على بكر! أهكذا يعامل الضيوف عند بنى وائل؟"

وأمام ثورة البسوس لانتهاك حق ضيافتها، ذهب جساس ليطلب تفسيرا لما حدث واتبع أثر الحليب المختلط بالدم، فلم يلبث أن اكتشف الجانى الذي كان قادما وراء الناقة الجريحة. وبالطبع احتدم النقاش بينهما. كان الشيخ وحيدا، فطعنه جساس برمح فى صدره ردا على جرحه للناقة.

يقال إن الحرب دامت أربعين سنة، ولكن حساباتى تدل على إمكانية استمرارها ما يقارب من أربعمائة سنة. وخلال تلك الفترة، كانت هناك محاولات لا حصر لها لتحقيق السلام بين الطرفين، ولكن فى كل مرة تغلبت الحزازات القديمة.

وذات مرة كانت فيها إحدى الهدن على وشك أن تتقطع، اتفق شيوخ القبيلتين على طلب التحكيم، ووقع ذلك على عاتق أقوى أمراء العرب عمرو بن هند.

طلب ابن هند أن تبعث إليه كل قبيلة مندوبًا عنها، ولكن بدلا من المرافعات، قرر أن يحكم لصالح المندوب الذى يرتجل القصيدة الأفضل على نفس الوزن والقافية.

وكان عمرو بن كلثوم مبعوث تغلب أول من أنشد قصيدته. وارتجف الحاضرون من شدة عجرفته.

ذلك لأن الشاعر رفع سبابته إلى أعلى، وزعم أنه يستأصل أذرعة الأعداء كمن ينزع أشواك الصبار، ويطرح رؤوس الأبطال أرضا كما تلقى الإبل بأحمالها. ويشرب ماء العيون النقى بينما تتمرغ القبائل فى الطين، ولا يعود من الحرب بالغنائم والأسرى ولكن بالملوك وقد صفوا على سيخ كالشواء.

قال كل هذا أمام الأمير، ولكن لاحظ بعض الحاضرين الأكثر انتباها شيئا غريبا. هو أن ابن هند بدا عليه المرح (وقال بعضهم الاستهزاء) منذ بداية القصيدة وحتى عندما استمع إلى وقاحة مندوب تغلب.

بدأت القصيدة بحث امرأة تدعى أم عمرو كانت قد تأخرت فى سقية الخمر فى الخيمة التى كان قد فاجأها هو وأصحابه فيها. وكانت شبه عارية، فرأى ذراعيها الأبيضين النقيين مثل قوائم الناقة ذات العنق الطويل التى لم تلد بعد، وثديين ناعمين وممتلئين كجرتين من العاج. وجذعًا أهيف ولدن ارتكز على ردفين ثقيلين ولحيمين كأوراك العجل.

وما زال الجدل قائما إلى الآن حول هوية أم عمرو: هل هى أم الشاعر وضحية عشق محرم، أو جارية تعمل فى الحانوت الذى وقع فيه المشهد، أو إحدى بنات عمه التى رحلت مع الإبل عندما نقص الكلأ؟

لا تفسر أى من هذه الفرضيات ابتسامة ابن هند، ذلك أن القليلين أدركوا حدة الإهانة ومداها، فابن هند كان اسمه هو الآخر عمرو.

(ق)
قاف
الحرف الحادى والعشرون
كرقم : ١٠٠
بالتسلسل : التاسع عشر
أول حرف فى "قدر" و"قبلة"

"اسأل الموتى إن كانوا ينشدون السلام"
ـ طرفة

بين المشهد الذى يخسر فيه الغطاش نزال المعرفة ضد ذى السيوف والمشهد التالى الذى يبدأ فيه أبو هلال بتخيل الآلات التى يمكن بواسطتها العودة إلى الماضى، يبدو أن هناك جزءا مفقودا، أبياتا ضاعت أثناء النقل الشفوى للقصيدة.

والأبيات المفقودة للأسف هى التى تكشف عن لغز القاف. ويعتبر الناكرون لصحة القصيدة ذلك أحد البراهين على تزويرها، ولكنى أرى عكس ذلك. فلو كانت القصيدة زائفة فعلا لما ترك المزور اللغز دون حل.

والواقع أن أبا هلال الذى كان يستطيع قراءة النجوم حقق مأثرة كبيرة بتفسير النص الغامض الذى كتبه الأب شكور. لم يكن من الصعب علىّ إعادة تكوين استنتاجاته بدءا من بعض الحقائق الواضحة نسبيا.

الخطوة الأولى: بدأ أبو هلال بفصل بعض الأسماء التى كون منها ما يشبه القالب:

رأس شمس
قدم قمر
عين عشر
جده قاف

الخطوة الثانية: أدرك أن بالإمكان تصنيف هذه الأسماء إلى مجموعتين، تحتوى إحداهما على الأشياء الفوقية (العمود الأول) والأخرى على الأشياء التحتية (العمود الثانى). كلتا هاتان المجموعتان تحتويان على أسماء نكرة (فى السطر الأول إلى الثالث) وأسماء أعلام (فى السطر الرابع).

الخطوة الثالثة: لاحظ الحكيم أن السطور الثلاثة الأولى فى المجموعة اليمنى تمثل كلمات من النوع نفسه، أى أسماء أجزاء من الجسم، ولذلك كان على المجموعة المقابلة على الجانب الأيسر أن تتبع نفس القاعدة. ولما كان الشمس والقمر جسمين سماويين، وكان أبو هلال فلكيا وله معرفة شاملة بالمصطلحات الفلكية، لم يصعب عليه الاستنتاج أن "عشر" تدل على أحد البروج السماوية،

وأنه ولابد البرج العاشر، وبالتحديد سَمْت الرأس المعروف "بمنتصف السماء"، أى موقع الشمس فى منتصف اليوم الفلكى.

الخطوة الرابعة: لاحظ أبو هلال أن مجموعة أجزاء الجسم كانت بالنسبة لجَدّه بمثابة المحتويات بالنسبة للوعاء. وهكذا تكون العناصر السماوية "شمس" و "قمر" و "البرج العاشر" أيضا محتواة فى قاف، وبالتالى يكون قاف فى السماء. جبل القاف الذى يحيط بالأرض ويحافظ على توازنها - ذلك الجبل الذى لم يره أو يلمسه أحد - لم يكن إلا الدائرة العظيمة الخيالية التى تحتوى على الكواكب وتطوف بها النجوم السبع والبروج الاثنا عشر.

الخطوة الخامسة: جَدّه فوق قاف، أى أن جَدّه فوق الدائرة الفلكية. وهنا يأتى مكاريوس: لابد أن الراهب قص على الحكيم تجربة الأب شكور الذى لم يحدق النظر فى الشمس أو القمر، ولكن بحث عن نقطة محددة فى السماء. وفى لغة الألغاز، "رأس" يمكن أن تعنى "أول" و"قدم" أن تشير إلى "آخر". كان البرج العاشر فى الوسط، وبالتالى ركزت العين عليه.

الخطوط السادسة: مكاريوس مرة أخرى، نعرف أن الراهب كان فى رفقة الحاخام عبد الرب عندما فسر الرموز الغامضة وتوصل لنص اللغز، ونعلم أيضًا أنه نسخ حروفًا على جلد عنز، ويمكننا افتراض أنها كانت كلمات اللغز وقيمتها الرقمية وترجمة النص. ومن المعقول افتراض أنه كشف لأبى هلال عن الطريقة التي استعملها عبد الرب، ورغم أن الفلكى لم يعرف قراءة العربية، لم

يكن من الصعب عليه بمساعدة مكاريوس أن يميز فى الرموز التى كونت كلمة «جده» الأرقام ٣و٤و٥. وبذلك أن يوضع جده فوق قاف معناه أن تقسم دائرة الفلك إلى أقسام تعادل الأرقام التى يتكون منها اسمه، وبهذا اكتملت خريطة البروج بالحل الهندسى للغز القاف:
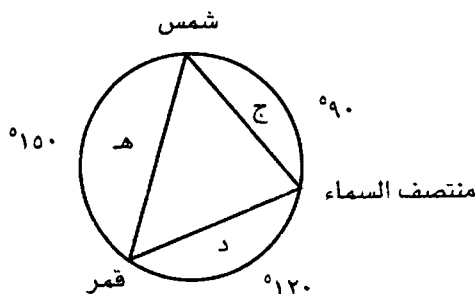
استطراد:
مغارة على بابا

لا شك فى أن توظيف الفكر بالطريقة المنظمة التى أطلق الإغريق عليها اسم الفلسفة لم يحدث لأول مرة فى الصحراء. ولكن منذ عهود غابرة بذل العرب جهودا عظيمة لفهم الكون بطريقة عقلانية، مستعينين بالتراث العلمى للعالم القديم، مثل وصايا بتاح حتب، وحكمة أحيقار، وأمثال سليمان.

ولا بد من الاعتراف بذلك المجهود، وخاصة لأن العربية لغة شعرية بالدرجة الأولى. وفى هذا المجال كان الذين يفكرون بالألمانية الحديثة، أو باليونانية الكلاسيكية، أو بالتوبى القديم أقل استحقاقا بكثير من العرب، نظرا لأن كل جملة فى تلك اللغات تعبر عن معنى واحد، بخلاف العربية(±).

(±) التوبى إحدى لغات سكان البرازيل الأصليين. (المترجم).

وعندما سيطرت الجيوش الإسلامية على الشام بعد القرن السابع الميلادى تحولت الفلسفة العربية تحولا جوهريا إلى علم اللاهوت، سواء كان الإسلامى أو المسيحى. وكانت رقابة الخلفاء فى ذلك العصر عالية الكفاءة، فحكم على الكثير من المفكرين العلمانيين أن يشاهدوا كتبهم وهى تحرق، أو أن تفصل أجسادهم عن رؤوسهم.

ولذلك لجأ عدد من الحكماء إلى النفى الاختيارى فى جبال لبنان، وكانوا واحدا وأربعين: ستة من السنة، وثلاثة من الشيعة، واثنى عشر من الدروز، وخمسة من الأرثوذكس، وثلاثة عشر مارونيا، واثنين من المؤمنين بوحدة الطبيعة. ودافع هؤلاء الحكماء عن أطروحتهم التى تقول إن الرحمة لا تتفق مع العدالة، وذلك لأن المذنبين فقط هم الذين يُعفى عنهم، وبالتالى فإن الكتب المقدسة زائفة، لأنها تصور الله على أنه عادل ورحيم فى نفس الوقت.

ولم تعثر السلطات على الواحد والأربعين فيلسوفا فى المغارة التى اختبَؤوا فيها، مع ضخامة قوة الشرطة التى استنفرت للقبض عليهم.

وكالمعتاد، جاء الصدع من الداخل. أصر أحدهم، وكان اسمه على بابا، أن يعود الأربعون الآخرون للاعتراف بإمكانية وجود الله، وأن يختاروا له إما صفة العدل أو صفة الرحمة.

ولا نعرف حتى الآن أى الصفتين اختارها على بابا ليؤمن بها، ولكن ليس هناك أدنى شك فى أنه كشف لجنود الخليفة عن كلمة السر التى تفتح باب المغارة.

وصاح الجنود من الخارج: "افتح يا سمسم!" وقبضوا على الأربعين فيلسوفا وقيدوهم ووضعوهم فى قرب وسكبوا عليهم الزيت المغلى.

وليس من الصعب تمييز حكاية على بابا والأربعين حرامى فى هذه الرواية، وليس من الصدفة أنها غير موجودة فى أى من المخطوطات العربية «لألف ليلة وليلة»، حيث إنها ظهرت لأول مرة فى الترجمة الفرنسية الشهيرة لأنطوان جالان المنشورة فى سنة ١٧٠٥. كان جالان قد سمعها من حكايات أخرى للقس المارونى المدعو حنا عندما كان فى مدينة حلب القريبة من الجبال التى وقعت فيها قصة الواحد والأربعين فيلسوفا.

وبغض النظر عن صحة أو زيف قصة جالان وعن تطابق شخصيتى على بابا، فالواقع أن التقاليد التى غرسها الواحد والأربعون فيلسوفا لم تندثر. ولزمن طويل بعدها، اضطهد حكام لبنان العلماء المتهمين بالهرطقة والإلحاد.

وفى منتصف القرن الثامن عشر استنتجت ما تسمى "بمدرسة بيروت" أن حالة الوجود لا تكتمل إلا بالموت، على أساس أن فعل "كان" بالعربية يصرف فى زمن الماضى فقط.

وتطور الفكر انطلاقا من هذا المبدأ بطريقة منظمة حتى توصل لفهم كامل للوجود.

وتخطى المرحلة الأخيرة فى هذه المسيرة الفكرية الفيلسوف داوود (أو دافيدى بالبرتغالية) الذى ولد فى البرازيل لأبوين من

المهاجرين اللبنانيين الذين جرى فى عروقهم دم قبيلة اللبوّة. ولعله كان أعظم مفكر فى تاريخ البشرية، ومن إنجازاته أنه قدم الحل التام لجميع المشكلات الميتافيزيقية.

وكتاب «حوار الأشياء» الذى يضم مجموع أفكاره يعد عملا فلسفيا لا نظير له، بل الرسالة الأخيرة والكتاب الكامل. وبلغ من كماله درجة أن أصبحت كتابته مستحيلة.

(ر)

راء

الحرف العاشر

كرقم: ٢٠٠

بالتسلسل: العشرون

أول حرف فى "رأس" و"رجل"

"تحقيق الرغبات من أهداف الأغبياء"
ـ علاء الدين

فى الواقع أن حدادا من مكة كان هو الذى نفذ تصميم أبى هلال لآلة السفر عبر الزمن والاسطرلاب وذات الربع المستخدمة فى الفلك والملاحة.

تكونت آلة الزمن من دائرة مدرجة تمثل مسار الشمس والبروج الاثنى عشر. وفى منتصف الدائرة انتصب عمود قائم يدور حوله عقربان يشير الأول لموقع الشمس ويتحرك بمقدار درجة واحدة كل يوم. أما العقرب الآخر الذى يشير لمكان القمر فيتحرك تلقائيا بمقدار ثلاث عشرة درجة مع حركة المؤشر الشمسى.

ورغم ضـــرورة إعـادة ضـبط الآلـة كل ثلاثة أشـهـر على الأقل لتصـحيح الانحـراف، كان من الممكن حساب اليوم والساعـة التى تكون فيها الشمس والقمـر على بعد ١٥٠ درجة من بعضهما بعضا بقـدر لا بأس به من الدقـة. وللتـمكن من ذلك، كان يكفى التـحقق بالآلات الموجـودة من أن منتصف السمـاء (حـيث توجـد أعلـى نقطة فى البرج الثانى عشر) على بعد ٩٠ و١٢٠ درجة من النجمين، على التوالى.

وشرح أبو هـلال لمكاريوس كيفيـة استعمال الآلات، وعلمه تمييز البروج السماوية وحساب أعلى نقطة فى كل منها.

وفى اليـوم والوقت المحـددين لتكرار نفس التـرتيب الفلكى، أى بعد ظهور البدر بحوالى يومين فى ساعة الغسق، اتجه الحكيم إلى منتصف الصحراء فى صحبة الراهب والغطاش، ومعهم كلب وثلاث ناقات دبرها مكاريوس فى يثرب.

كانت الشمس قد انحدرت كثيرا عندما أوقفوا ناقاتهم فى مكان صخرى من الصحراء، وتابع الغطاش حسابات أبى هلال ومساعده الراهب، ولأن التـرتيب المحدد للثلاث نقاط السماوية كان منحـرفا إلى اليسار قليلا، لم تتيسـر رؤية عين جَدَه إلا لفتـرة قصيرة، ودون وضوح تام.

ولكن الغطاش كان مضطربا بسبب كلب مكاريوس الذى لم يكف عن الهرير.

وقال لما لاحظ حركة خفيفة عند الأفق: "يبدو أنها خيل تعدو".

وقـال الـراهـب وقـد تـرك آلاته: "لا أظن، الكلب ينبح باتجـاه الصخور".

وصاح الغطاش: "ضباع!"

ونزع قـوسـه من السـرج، لكن السـهم طاش لأن الإبل أجـفلت وانطلقت هاربة.

وفى أثناء ذلك ظهرت أربعة وحوش من بين الصخور. لم يكن للغطاش بد من التلويح بسيفه ضد أكثرها جرأة، بينما حاول مكاريوس السيطرة على الإبل.

وتراجع حيوان أصيب فى خطمه، وأصيب آخر فى مقتل، وهرب الباقون.

ولكن عـين جَدَه كانت قد اختفت. وكان أبو.هلال وحده هادئ الأعصاب، مثل كل الحكماء، ولذلك استطاع أن يرى تراجع الزمن: الجـمـال باركـة، ومـعـالجـة ذات الربع والأسطرلاب، واضطراب الغطاش، وحركة مكاريوس، ونباح الكلاب.

استطراد:
الحارث بن حلزة(±)

وبعد ذلك استدعى ابن هند مبعوث قبيلة بكر. أتاه الحارث بن حلزة مرتديا ثوبا طويلا يرفل على الأرض، وأكمامًا بلغت منتصف أصابعه، وكان وجهه ملثما بطرف عمامته الذى لم يكشف إلا عن عينين ذكيتين. وكان الحارث فى زمانه أذكى رجل فى بكر.

وأفسح له الحاضرون الطريق. اعتبر الحارث ذلك نوعا من التوقير الواجب له، ولكنه كان مخطئا، فقد كان خبر إصابته بالبرص قد انتشر.

واتبعت قصيدة الحارث العرف السائد، حيث استعاد ذكرى حبه لأسماء وأخرى تدعى هند، فأدى ذلك لانتشار شائعات عن علاقة بين الشاعر وأم الملك.

وبعينيكَ أوقدتْ هندٌ النا   رَ أخِيرا تُلْوى بهَا العَلْيَاءُ

(±) لا ينبغى قراءة هذا الفصل قبل "استطراد: عمرو بن كلثوم".

وبالطبع لم ينحدر الحارث لمستوى بذاءة عمرو، كما لاحظ ابن هند، ولذلك أبدى اهتماما أكبر بتصوير الشاعر لناقته التى أثارت فى عدوها غبارا أكثر من عواصف الصحراء.

وبعد ذلك انصرفت القصيدة إلى مدح ابن هند وهجاء تغلب وسرد فضائل وانتصارات بنى بكر.

قبلَ ما اليوم بيَّضتْ بعيون النـ ـاس فيها تغيُّظٌ وإباءُ
وَكَأَنَّ المَنُونَ تَرْدى بنَا أَرْ عنَ جَونًا ينجابُ عنهُ العماءُ
مكفهّرًا على الحوادثِ لا ترْ تُوهُ للدَّهْرِ مُؤْيدٌ صَمَّاءُ

كان الحارث متأكدا من فوزه عندما انتهى من إنشاد القصيدة. ولكن من العجيب أن أحدا لم يلاحظ فى ابن هند أى أثر للقبول، بل بالعكس، قيل إن الملك صرفه بازدراء.

واجتمع بنو بكر وتغلب والعدد الكبير من عرب القبائل الأخرى الذين شاهدوا النزال الشعرى حول ابن هند الذى كان على وشك أن يعلن عن الفائز.

- "أريد أن أنصف الشاعرين. لا أستطيع أن أقول لعمرو إنه انتصر، ولا أستطيع أن أقول للحارث إنه كان الأسوء".

فرحت بكر وأحبطت تغلب. وكان الرأى العام ينتظر نتيجة تعكس صلف عمرو واعتدال ودبلوماسية الحارث بن حلزة.

وفى وسط الضجة التى أثارتها مقولة ابن هند، لاحظ القليلون انسحاب الحارث خجلا و هو ملتف بردائه وعمامته، ولم يهتم أحد بتبجح عمرو الذى كان يحرض تغلب على شن حرب أخرى.

يعرف الشعراء جيدا أيهما استحق الفوز. أما الملك ابن هند، فمن كان هو ليحكم بأن رجلا فى قوة عمرو وخيلائه كان الأفضل؟ وهل كان باستطاعته أن يقول الحقيقة لكذاب مثل الحارث الذى لم يكن برصه ليسمح له بركوب ناقة أو بالاستحواذ على نساء اسمهن هند؟

(ش)
شين
الحرف الثالث عشر
كرقم : ٣٠٠
بالتسلسل : الحادى والعشرون
أول حرف فى "شاعر" و"شيطان"

"لا أسامح أحدا أبدا، ولا أتظاهر بميزة تتحلى بها الآلهة"

ـ ذو السيوف

لم يُقدر لى أن أرى عين جَدَه هذه المرة، وعندما تذكرت ليلى حنقت حنقا شديدا وهممت بتحطيم الآلات التى علقت من سرج أبى هلال، ولكن أوقفنى ظهور حشد كبير عند الأفق.

ـ "نحن من قبيلة قدرة ونبحث عن ابن عمنا خليل الذى خطفه قطاع طرق هربوا فى هذا الاتجاه".

لم يكن أحد من ثلاثتنا قد رأى شيئا. ترجل أحدهم عن حصانه وأخذ يدور ناظرا إلى الأرض بارتياب، وما لبث أن رأى قطرات من دم الضبع.

وعندئذ حامت بومة وحطت على صخرة فتوجست من أن يظنوها روح خليل التى جاءت تطالب بالثأر.

- "هنا مات شخص لم يؤخذ بثأره بعد!"

أراد مكاريوس أن يلقى خطبة عن خرافات الوثنية، ولكنى كنت أكثر عملية فقلت بنبرة من كان مستعدا لأى شىء:

- "لم تتعب البومة بعد". لكن الحظ لم يحالفنى فى ذلك اليوم.

نعقت البومة وأعطت أبناء قدرة الدليل اللازم: "اسقونى! اسقونى!"

- "هنا مات شخص لم يؤخذ بثأره بعد!"

ثم جرى باتجاه الصخور وعثر على جثة خليل.

وكان خليل القدرى بالفعل فى وكر الضباع بين الصخور. كان مقيد اليدين والقدمين، ممزق الجسد، وبه علامات أنياب. شقت الوحوش بطنه وكانت تأكل أحشاءه عندما هاجمتنا.

ولاحظ مكاريوس عدم وجود جروح بسيف أو سهم، ولكن الفرسان الأربعة التفوا حول الرجل الوحيد المسلح.

- "عند انتهاء الشهور الحرم سيراق دم اللبؤة فى مقابل دم خليل".

- "لا أستحى من القتل، ولكنى لا أطعن دون سبب".

وأومـأت مـشـيـرا أن باسـتطـاعـتى مـواجـهـة الأربعـة. وأقـسم مكاريوس على براءتي واستشهد بالحكيم. وحدق أبناء قدرة النظر فى سيفى.

ـ "هذا دم".

وجرى مكاريوس بحثا عن الضبع المقتول الذى قذفت به على بعـد، إلا أن زمـزمـة هائلة أرعـدت وسط زوبعـة غطت رؤوسنا بالرمال، وحجبت السماء هيئة عظيمة من نار بلا دخان.

وعلى الرغم من الرمال، بذلت جهدا خارقا لكى أرى وجه جَدَه المرعب والمشوه، ذا المحجر الفارغ والعين المعتمة. ومن تلك الحنجرة الخشنة والمختنقة سمعت صوتا مدويا ومخيفا مثل زئير الوحوش فى الكهوف:

ـ "الذنب ذنب الغطاش. جاء خليل راكبا ناقة عجوز تركها الغطاش مع اللصوص، فلم تستطع العدو لما هاجمتها الضباع" (±).

(±) أنظر فصل الواو.

استطراد:
محاكمة عبد الله

الولع بالقضاة من الخصال الكثيرة التى شابه فيها العرب الشعوب السامية الأخرى. ففى مملكة إسرائيل القديمة كان الملوك قضاة، كما انحصرت شهرة البدوى حمورابى الذى اعتلى عرش الأكديين بوضعه للقانون المعروف. وكان الحكيم الآرامى أحيقار المستشار القانونى فى بلاط الإمبراطور الآشورى.

وعند قبائل الصحراء، قامت القوانين القديمة على أساس المعادلة، فكان "العين بالعين والسن بالسن" المبدأ الشائع فى أنحاء الشرق الأوسط. ومع مرور الوقت، خففت حدة ذلك القانون بتطور مفهوم التعويض، ولكن مع ذلك استمرت فكرة العدالة مرتبطة بالانتقام من المذنب.

بيد أن بعض علماء العرب لاحظوا أن عقاب المخطئ لا يمنع ظهور مجرمين جدد، ولذلك طوروا نظرية أن العقوبة يجب أن

تطبق فقط لمنع ارتكاب جريمة أخرى. وهكذا أصبح عقاب اللصوص العاديين أكبر من عقاب القتلة فى الجرائم العاطفية، لأن اللصوص تعمدوا الخروج عن القانون عمدا، على عكس الآخرين.

وتطور هذا المبدأ أكثر من ذلك عند قبائل الصحراء، ولأن هدف العدالة صار منع الجريمة من الوقوع بدلا من عقاب المجرم، أصبح شيوخ القبائل والقضاة لا يعاقبون إلا الجرائم الممكنة والأشخاص الذين كان بالإمكان أن يصبحوا مجرمين.

كان هذا هو المصير التعس لعبد الله، فارس اللبؤة العظيم وأحد أمهر رماتها الذى ربما كان والد الغطاش.

عاد عبد الله ذات مرة من الصيد إلى الخيام المنصوبة فى نواح تدمر راكبا حصانا أسود ويجر غزالة لم تبقر بعد، ولم ينقص من جعبته إلا سهم واحد.

اقترب منه خلسة شيوخ عدد من العشائر وفى صحبتهم الكثير من الرجال المسلحين، وشاهدوه وهو يترجل. ولم يرهم عبد الله أو يحدثهم، حيث كان مشغولا بنزع سيفه الدمشقى من سرجه.

ولأنه لم ير ولم يتكلم، لم يكن ليعرف أن كلب ابن عمه رزق الله كان قد أمضى الليلة كلها نباحا فى المخيم، ولا أن آثار أقدام الكلب اختلطت بآثار أقدام آدمية امتدت إلى خيمة زوجه جليلة، وأم الغطاش مستقبلا، التى فاح من شعرها عندما استيقظت عطرًا أقوى من المعتاد. ولم يعرف أيضا أن أول أمر تلقاه الغلام من رزق الله (الأب المحتمل الآخر للغطاش) هو غسل الثوب والعمامة اللتين ارتداهما حتى العشية.

لم يراود الرجال الذين شاهدوا تحركات عبد الله ذلك الصباح أى شك فيما كان سيحدث حتما، فرفعوا أصواتهم بالاتهام.

كان لدى عبد الله من الوقت ما يكفى ليقفز على ظهر جواده وينطلق هاربا. بينما صلصل السهم الذى أطلقه رزق الله عندما أصاب السيف الدمشقى.

ومن يومها لم يعرف عبد الله الراحة، فكان مذنبا بجريمة عظمى. قبض عليه ذات مرة فى دمشق بأمر شيخ اللبؤة، لكنه رشى الحراس البيزنطيين وهرب. وقبضت عليه قبيلة كلب مرة أخرى فى الطريق إلى حمص، ولكنه تمكن من الهرب مرة أخرى بواسطة سكين خبأها فى عمامته. وبعد ذلك استطاع الهرب مرتين أو ثلاث مرات بطرائق مدهشة، حتى أمسك به أخيرا رزق الله بنفسه عند خروجه من بعلبك مستترا فى صحبة وثنيين متطرفين كانوا يتبعون موكبا للإله أدونيس.

وحضر محاكمة عبد الله كل عشائر اللبؤة وأناس من قبائل مختلفة، بالإضافة لأبرز قضاة العرب فى ذلك العصر. ومع ذلك، وبعكس التوقعات، لم يتفق الكل على إدانته.

فى البداية نوقشت مسألة ما إذا كان هناك دليل على أن عبد الله كان سيقتل رزق الله. جزم المدعون أن عبد الله كان من سلالة نبيلة، وأنه كان يدير السيف الدمشقى فى يده بكل سهولة، وأنه كان عائدا من حمية الصيد الذى لم يطلق فيه أكثر من سهم واحد.

ولكن تعقدت الأمور عندما طالب القضاة بالأدلة على أن نباح الكلب وعطر جليلة بلغا المدى الذى زعمه المدعون. كان من السهل

حمل الكلب على النباح مرة أخرى، ولكن خلاصات العطور التى كانت جليلة قد استعملتها عشية الجريمة ذهبت مع الريح.

وعاد المدعون إلى الصدارة عندما اعترفت جليلة ذاتها أنها رقدت مع رزق الله، وأنها مع ذلك لا تعرف بالتحديد من أيهما حبلت.

ومن تلك اللحظة، وصلت المناقشات القانونية لأعلى مستوى لها فى التاريخ البدوى بأجمعه. وتعلق السؤال الأول بهوية المتهم، فكان من الضرورى التيقن من أن عبد الله الذى عاد لتوه من الصيد هو نفسه عبد الله الذى مثل أمام القضاة. لم يختلف اثنان من الشهود على ذلك، ولكن أحدا لم يستطع البرهنة على أن الإنسان يبقى على حاله مع مرور الوقت.

ولم يجدوا حلا للمشكلة، فاقترح أحدهم أن الجانى الحقيقى هو صانع السيوف الدمشقى، ولكن هذه الفرضية انهارت عندما تذكروا أن عبد الله كان يمتلك السهام فى جعبته.

وفى نهاية الأمر، طالب فؤاد، وكان أكبر القضاة سنا وأكثرهم حكمة، بالبرهان على أن كلمة "جريمة" تعنى "جريمة" فقط ولا غير. ولعل هذه كانت أكثر مراحل المحاكمة تعقيدا، ففى الواقع لم يستطع أحد أن يثبت استحالة استعمال أى كلمة على الإطلاق، بما فى ذلك كلمة "جريمة"، كناية عن أى معنى ينسب إليها.

وصاح فؤاد ملوحا بيديه: "ليست هذه الكلمة إلا اصطلاحا فقط!"

وبالطبع لم يقبل شيوخ اللبؤة بالحكم النهائى وأرادوا تنفيذ العدالة بأيديهم، إلا أن عبد الله انتهز فرصة الفوضى التى انتشرت فى خيمة المحكمة وهرب مرة أخرى.

(ت)

تاء
الحرف الثالث
كرقم: ٤٠٠
بالتسلسل: الثانى والعشرون
أول حرف فى "تبر" و"تمرة"

"ليس لشىء من المهابة ما يستوجب أن يؤخذ دائما بجدية"
- الأعشى

تستحق شخصية مكاريوس استطرادا ما. تصفه قافية القاف بأنه رجل غير جدير بالاحترام وتابع بطبيعته، على خلاف شاسع من المكانة الرفيعة التى يستحقها مكاريوس التاريخى. كان رجلا عليما بالكتب، وقد رأينا السرعة التى تمكن بها من الأبجديات العربية والعبرية ومن طريقة الترقيم بالحروف. كما كان حاد الملاحظة وله مقدرة كبيرة على استعمال المنطق، ونعرف أنه تعلم بسهولة أسس العلوم التى شرحها له أبو هلال. كما كانت له أيضا حاسة شعرية مرهفة.

كان الراهب حينها قد حفظ أشعار الغطاش عن ظهر قلب وحرص على إنشادها أملا فى أن يتعلم قول الشعر فى يوم ما.

يفند هذا الأمر شبهة التناقض التى يحتج بها من ينكرون صحة القصيدة، وهى أنه من المستحيل معرفة نهاية القصيدة إذا كان الشاعر قد مات فى نفس اللحظة التى انتهى فيها من إنشائها[±].

ومن الواضح بالطبع أن الغطاش كان له راوٍ، مثل أى شاعر جاهلى آخر، أى شخص حفظ أشعاره فى ذاكرته وعرف بالظروف المحيطة بكل قصيدة واستطاع أن يفسرها.

كان مكاريوس بجوار الغطاش حتى آخر لحظة، وكان راويه الذى صاحبه، وكانت القصائد التى أنشدها فى شوارع نجران من تأليف اللبؤى.

وبعد سلسلة المغامرات التى قصصتها عليكم، وصل الغطاش ومكاريوس إلى نواحى نجران، حيث نصبت قبيلة ليلى خيامها. نحن الآن فى آخر يوم من شهر محرم. كانت غراب لا تزال هاربة من صالح التى كانت تزداد قوتها كل يوم بانضمام أفضل رجال كلب وعذرة وتنوخ وبهراء وطيئ وغسان وجشام إليها.

(±) تزامن نظم أبيات القافية تزامنا تاما مع الأحداث التى يرويها الغطاش فى القصيدة.

كان البدر قد سطع قبل ذلك بيومين. وفى ساعة الشفق من ذلك اليوم، تظهر من جديد التشكيلة السماوية التى تمثل عين جَدَه. وفى نجران، ينتظر الراهب مكاريوس تلك الساعة.

الغطاش منهمك فى لعبة ميسر يضحى فيها البدو بإبل يقسمونها ويتبارون على أجزائها بالقداح.

ينسحب مكاريوس ويتجه إلى خارج المدينة بحثا عن أفضل موقع لتأمل السماء، وتقوده معاييره الفلكية البحتة لخيام غراب.

ويقترب الراهب من المخيم. كان رجال القبيلة قد أهملوا الحراسة ليستمتعوا بآخر يوم من أيام السلام. وفجأة يرى مكاريوس راية المثنى ترفرف ويتذكر وهو يحس بالذنب العهد الذى قطعه على نفسه فى دير المغارة: أن يسترد جثة الأب شكور من تلك الخيمة التى تحتوى على غنائم الحرب المريعة.

ويتسلل مكاريوس إلى داخل المخيم ويقترب من مومياوات الأب شكور وشيخ بلبل، مدركا أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا بمفرده. كما أنها الساعة الموعودة للنظر إلى النقطة المحددة فى السماء ومشاهدة الظاهرة.

وعندئذ تخرج من الخيام بضع فتيات من غراب ووجوههن سافرة، وبينهن ليلى التى تصرخ معلنة عن اقتحام الغريب للمخيم. وعندما يظهر الرجال يصيح مكاريوس باضطراب كمن يطلب النجدة:

- "أين أنت يا غطاش؟"

مؤشــر:
طرفـة

وجه التشابه بين الغطاش وطرفة شكلى بالدرجة الأولى. كان عنف أولهما اللفظى انعكاس مباشر لشخصيته، ولكن حدة طرفة كانت بلاغية وحسب.

كان طرفة الشاعر الوحيد (وبالأحرى الشاعر العظيم الوحيد) الذى لم ينعم بإعجاب أقربائه. كان من قبيلة بكر بن وائل وتيتم فى مبتهل العمر، فرباه أعمامه وبددوا معظم ثروة أمه.

ولما شب كان باستطاعته أن يطالب بحقه، ولكنه كان بطبيعته منصرفا إلى اللذة، فعاش حياته فى تهتك بين الخمر والغناء والقمار. وتفوق فى الشعر رغم أنه لم يتلق التعليم اللائق بنسبه.

ولكن طرفه لم يتمتع باحترام الآخرين، وانتهى به الأمر بأن طرد

من قبيلته، فلم يعد أمامه سوى امتطاء ناقته واكتساب معيشته من السلب.

ألا أيُّهذا اللائمى أحضرَ الوغى وأن أشهدَ اللذّات هل أنتَ مُخلِدى
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيَّتى فدعنى أبادرها بما ملكتْ يدى

هناك شىء عجيب فى حياة طرفة: لا يتذكر أحد رؤيته مع النساء، مع أن الشاعر يصفهن (وتحديدًا سيقانهن المدورة) بأنهن من أعظم ملذات الحياة، بجانب النبيذ والخيل. تبدأ معلقته بذكر امرأة تدعى خولة التى يقول الكثيرون إنها صبية من قبيلة كلب، ولكن أحدا لم يرها فى صحبة طرفة.

لخِولةَ أطْلالٌ ببُرقَةِ ثَهمَدِ تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليدِ

لا أحد يعرف السبب الذى دفع أحد أبناء عمه أن يقرر إعطاءه فرصة أخرى والعودة به إلى خيام بكر بن وائل بعد نفيه بفترة قصيرة. وهناك عامله ابن عمه معاملة الخدم وعهد إليه برعاية إبله.

والظاهر أن طرفة لم يعدل عن الخمر، ففى أثناء نوبة من نوبات سكره ترك الإبل لتهرب، ثم اضطر هو للهرب وقد أُهدر دمه فصار مطاردا فى الصحراء حتى آواه أمراء الحيرة.

وفى بلاطهم استكمل طرفة القصيدة التى أعتبرت فيما بعد من السبع العظام. وترك الشاعر فى نفوس عرب الحيرة انطباعا قويا

بسبب تكريسه ثلث القصيدة لناقته ذات الجمال الذى عجز الآخرون عن وصفه:

لها فَخِذانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهما   كأنَّهُما بابا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

...

كأن عُلوبَ النِّسع فى دأياتها   مَوَارِدُ مِن خَلْقاءَ فى ظَهرِ قَردَدِ

...

وعينان كالماويتين استكنَّتا   بكهْفَىْ حِجاجَىْ صخرة ٍ قَلْتِ مورد

...

فذالت كما ذالت وليدة مجلس   تُرى ربّها أذيالَ سَحْلٍ مُمَدَّدِ

لكن ابن عم طرفة دبر مؤامرة - ولا أعرف كيف تمكن من ذلك - تلقى بمقتضاها طرفة وعمه الوحيد الذى ظل مواليا له رسالة من ملك الحيرة ليسلمها لحاكم البحرين.

وفى منتصف الطريق، طلب عم طرفة من شاب قابلاه فى الطريق أن يقرأ لهما الرسالة. كانت، كما ظن، تحمل حكم الإعدام. ولكن طرفة كان نموذجا للولاء، فقرر ألا يرتد على أعقابه وأن يواصل الطريق وحيدا.

ومنحه الحاكم منحة اختيار وسيلة موته.

- "اسقونى الخمر حتى الثمل ثم استنزفونى من أمعائى".

وحسب عادة البدو، رُبطت ناقة طرفة بجانب قبره. وتحكى الأسطورة أحداثا غريبة، ففى بداية الأمر وجدوا أن حجارة القبر تحركت من أماكنها فى اليوم الثالث بعد الدفن، وكانت الناقة قد تحررت من معقلها، كما اختفت جثة طرفة.

وأقسم شاهد عيان أنه رأى الناقة وهى حرة فوق القبر المفتوح تحاول الاقتراب بضرعيها الجافين من شفتى الجثة. وبما أن طرفة كان قد مات وذراعاه الموثقان ممتدين إلى جانبيه على هيئة الصليب، لم تلبث أن انتشرت هرطقة تقول إن طرفة كان التجسد الثانى للمسيح.

وكذّب ابن العم الشرير هذه الإشاعات قائلا: "هذا مستحيل. طرفة كان لصا، والناقة التى ركبها لى واسمها خولة. سرقها عندما أخلى سبيل الأخريات".

لم يُعِر أحد اهتماما لمضمون هذا القول، لكنى أريد أن ألفت الانتباه للبيت الثالث من قصيدة طرفة:

كَأَنَّ حُدوجَ المالِكيَّةِ غُدوَةً   خَلايا سَفينٍ بِالنَواصِفِ مِن دَدِ

التفسير الأول مبتذل، وهو أن الشاعر تأسف على رحيل ابنة عمه، ربما تلك المسماة بخولة، ولكن لماذا لا نقول إنه تحسر على رحيل الناقة؟

(ث)

ثاء
الحرف الرابع
كرقم : ٥٠٠
بالتسلسل : الثالث والعشرون
أول حرف فى "ثأر" و"ثمن"

"لا يذبح الخنزير دون تلطيخ السكين"
ـ لمجهول

شهدت فتيات غراب أن الغطاش لم يكن فى الواقع من دخل المخيم وألقى نظرة خاطفة على أخت صباح ووجهها مكشوف. وشهد بذلك أيضا البدو الذين شاركوا الشاعر فى لعب الميسر، لكن ذا السيوف أصر على تعويض ـ أى على مبارزة ـ مستدلا فى اتهامه بصياح الراهب اليائس.

ـ "لا أحد ينادى من كان على مسيرة نصف ساعة من هنا".

لم يتوقف الغطاش عن الدفاع عن نفسه بالألفاظ البذيئة، لكنه غير من نبرته فجأة وقال: "قبلت التحدى، بشرط أن أختار الأسلحة هذه المرة".

وأذعن ذو السيوف لشرط شاعر اللبؤة، فحدد هذا قواعد المبارزة التى جاءت عليه بالخزى والطرد من القبيلة ونسيان العرب له.

- "الغالب هو من أنشد فى مدح ليلى أكبر عدد من الأبيات على قافية اللام، تبعا لاسمها، وفى البحر الطويل، مثل قامتها".

وارتفعت أصوات ساخطة من غراب، فهى قبيلة لم يقل أحد منها الشعر. كان الوقت قد تأخر، وفى اليوم التالى توافد أهل نجران لسماع النزال الشعرى.

لم يشك أحد فى فوز الغطاش، ولكن غرابًا اجتمعت عن آخرها وعلى وجوه رجالها الكبرياء، كما حضر أيضا بعض رجال اللبؤة، من بينهم خال للشاعر، وكان الوحيد الذى لم يطأطئ رأسه.

وشرع ذو السيوف فى الإنشاد. لم يحتفظ التراث بأى من تلك الأبيات التى كانت صحيحة وإن خلت من الجمال. قال أبياتا استطاع أن يتذكرها من أشعار القبائل، وزادها ارتجالا بأخرى لم تكن إلا تنويعات مبتذلة على الأولى.

وكان منهكا تماما عندما أتم المئة، وسعل. ثم حاول استكمال القصيدة، ولكنه تفوه بالبيت الواحد بعد المئة على قافية أخرى.

وجاء دور الغطاش. واندهش أهل نجران من سلاسة الإيقاع ورقة الكنايات. وبهدوء أنشد تسعة وتسعين بيتا لا تضاهى فى روعتها قبل أن يقتحم المجلس فجأة رجال شاهرين أسلحتهم ويحيطوا بممثلى قبيلة اللبؤة القليلين.

- "ها هو ودم خليل!"

كانوا من قدرة، وقد أخذتهم حمية الثأر. ولكن الغطاش لم يتأثر، كما يليق بشاعر عربى، بل على العكس، قال البيت المائة بينما شاهد ذويه يطاح بهم.

وصرخ خال الغطاش وهو مطروح على الأرض ووجهه ممرغ فى التراب، وحد السيف على رقبته:

- "يا لعار اللبؤة!"

وحاول أن يدير رقبته ليرى إن كان شاعر القبيلة قد التقط قوسه أو سل سيفه، ولكن لم يطل به الأمد لسماع البيت الأول بعد المئة لابن أخته أو لرؤية قتلته وهم يفرون دون أن يمنعهم أحد.

وفاز الغطاش بالمسابقة، وحقق بذلك الشرط الثانى للحصول على ليلى، ولكن حكم عليه بألا يمضى بعدها ليلة واحدة فى خيمة من خيام اللبؤة.

استطراد:
قصة لعلاء الدين

الأدب العربى (وبالتحديد السرد العربى) هندسى بالدرجة الأولى. لم يحاول القصاصون القدماء أن يحكوا حكاية وحسب، بل أن يرسموا صورة. وليس من الصدفة أن الخط كان الفن التصويرى الوحيد عند العرب.

لم يحد كتاب «ألف ليلة وليلة» عن تلك القاعدة، بل كان بمثابة أول محاولة إنسانية لتصوير اللانهائية. ونسخة الكتاب التى نعرفها فى الغرب ترجمها المستشرق الفرنسى أنطوان جالان، وما هى إلا صورة باهتة من الكتاب الأصلى، كُتبت تحت التأثير المشؤوم للكتاب الفارسى «ألف ليلة» الذى لم يمت لللانهائية بصلة، وكانت شخصيته الرئيسية امرأة من لحم ودم تدعى شهرزاد.

أما شهرزاد الحقيقية فكانت، ولا تزال، جنية. لم يكن للجن فى الأساطير البدوية أى علاقة بتلك الكائنات المحبوسة فى المصابيح

أو الصناديق المقفولة، بل كانت كائنات روحية تتخذ من حين لآخر شكلا ماديا، ومكانتها بين الآلهة والبشر. وكانوا يسكنون فى الأماكن الوعرة، ويعترضون طريق المسافرين بمفردهم، ويصيبون الناس بالجنون، ويلهمون الشعراء.

وكانوا كثيرين، منهم على سبيل المثال الدلهاب، وكان يأكل لحوم البشر ويظهر على هيئة رجل على ظهر بعير أسود. والغدار الذى يستمتع بتعذيب الأسرى، والهاتف الذى لا تراه العين والذى ينصح الناس بارتكاب الأعمال الطائشة، والشيطان الذى يسيطر على شُعَل اللهب، والعفريت الذى يتخذ هيئة الحيوانات، والشِق ذو الذراع الواحد والساق الواحدة ونصف جسد ونصف رأس، والغول والقطرب اللذان يمارسان البغاء مع الرجال والنساء، على التوالى، والصيلات الذى يسبب الرقص، والصوت الذى يحمل على الكذب، وشرزاد - أو بالأحرى شهرزاد - التى تتحرف بتلبية الرغبات بسبب سوء طبعها.

كان من عادة شهرزاد الظهور فى خيام البدو وحثهم على قص أحلامهم، وتعطينا تصرفاتها فى هذه المواقف فكرة واضحة عنها. فمثلا أراد أحد الأشراف أن يصبح أغنى الناس، فتسببت فى طرده من قبيلته فعاش وحيدا فى صحراء غير مأهولة امتلك فيها نبعا لا ينضب من الماء العذب. وأرادت فاطمة أن تكون أكثر النساء إغراء، فاشتهاها أربعون أبرص وطاردوها فى شوارع دمشق. ولكن مأساة حرب كانت الأسوأ، حيث ابتغى الخلود فدفن حيا، ولا يزال يصرخ فى قبره حتى الآن.

وحروب الجن دائما، وكانت أول من هزمتهم إلهة العُزّى عندما حبست الكثير منهم خلف دائرة جبل القاف الذى أحاط بالأرض.

وهرب أكثرهم بعد ذلك، ولكن الملك سليمان أسر أربعمئة وعشرين منهم وقيدهم بقوة خاتمه السحرى.

وكانت شهرزاد من القليلين منهم الذين بقوا أحرارا، وظلت على منوالها المروع فى تشويه طموحات الناس حتى دخلت خيمة بدوى شاب من قبيلة اللبؤة اسمه علاء الدين كان يروى القصص.

وعندما سألته شهرزاد عن حلمه قال:

- "أريد معرفة كل الحكايات الممكنة".

ضحكت شهرزاد من سذاجته، فمهما طال عمره لن يسنح له الوقت لسماع كل القصص التى جاد بها العقل الإنسانى.

أضاء علاء الدين مصباحا ورقد على حصير ليستمع، وبدأت الجنية فى القص. وانطفأ المصباح، فأوقده علاء الدين عدة مرات. ثم رحلت قبيلة اللبؤة، ولكنه صمم على المكوث فى خيمته ليستمع لحكايات شهرزاد.

وشاخ علاء الدين وهو يولى انتباهه لأساطير الجنية حتى مات. وانتصرت بذلك شهرزاد، فكانت تعرف أنه لن يمتد به العمر لسماع كل القصص.

إلا أنها لبثت وقتا طويلا قبل أن تدرك أنها وقعت هى أيضا فى الفخ الذى نصبه لها البدوى الشاب.

ذلك لأن علاء الدين كان يعرف أن كل قصة تفرز قصة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، وهكذا بالتوالى حتى نعود للحكاية الأولى، ثم تُعاد الكرة بلا نهاية. وفى الحقيقة أن القصص الممكنة عددها محدود، ولكن لا يمكن لأى منها أن تعتبر الأولى أو الأخيرة.

ومثل دائرة جبل القاف، ودائرة خاتم سليمان، ارتبطت القصص التى أراد علاء الدين معرفتها ببعضها بعضا كالدائرة. وغدت شهرزاد سجينة فى تلك الدائرة التى تمثل، فى حقيقتها، فكرة اللانهائية.

واحتوى كتاب ألف ليلة وليلة الأصلى على تلك القصص التى روتها شهرزاد لعلاء الدين. وليس من الصدفة أن شخصية علاء الدين فى النسخة المحرفة التى وصلتنا هى لشاب استطاع السيطرة على جنى.

وعلاء الدين الحقيقى ليس اليوم إلا حفنة من رفات مدفونة فى الصحراء، ولكن إلى جواره لا تزال شهرزاد مستعبدة من قبل حكايات تدور وتدور بلا نهاية.

(خ)
خاء
الحرف السابع
كرقم : ٦٠٠
بالتسلسل : الرابع والعشرون
أول حرف فى "خالد" و"خال"

"أحب قبيلة الخفافيش، فعندهم كل أنثى جميلة"
ـ الغطاش

عقلت ناقتى لكى أتأمل جبل الضباع المنتصب كثدى امرأة شابة، والمائل بعض الشىء إلى أحد الجانبين كنهد من ترضع للمرة الأولى. أدركته بسرعة وتسلقته من الجانب الأقل انحدارا.

وفى أحد الجحور فى جانبه عثرت على عجل صغير يتأوه ويثب حول جثة أمه. كان مثلى لم يعد له أهل، ولكن الفرق بيننا أنى كنت أستطيع اتخاذ أهل آخرين.

حمل مكاريوس الحيوان الصغير عندما رأى آخر سهم لى وقد أصاب عنقه، وأكلناه تلك الليلة مشويا بلا توابل على الصخور. لم تكن جيفة أمه قد فاحت رائحتها بعد، ومع ذلك سمعنا أصوات الضباع التى سكنت ذلك المكان الكريه.

ورغم ذلك نمت، وحلمت بوجه ليلى المكشوف وهى تقبل فمى كما تلعق اللبؤة بطن وليدها، ثم أيقظنى نباح كلب مكاريوس. ولم تكن ليلى من لعقت شفتاى، بل ضبع مخيف كريه الرائحة.

هجمت على الوحش بخنجرى فهرب واختبأ فى مكان ما قريب، وجريت خلفه أبحث فى الظلمة. لم يكن الضبع فى المكان الذى ظننت، ولكنى وجدت بدلا منه تلك الهيئة النحيفة والرثة والمنفرة للعرافة العرجاء وهى تضحك كغراب عاد لتوه من الجحيم.

- " عليكِ اللعنة! " وألقيت بنفسى عليها لأمنعها من الحركة بثقل جسمى.

ثم قلت لماكاريوس: "سآخذها لغراب لأوفى بالشرط الثالث!"

- " تذكر كلام المثنى: "عندما يقتفى رجال غراب الأثر الذى تحدثت عنه ويأتوا بالعرافة لخيام القبيلة". لو اقتدتنى بيديك لفاز ذو السيوف.

تبًا لمن كان على حق! أخليت سبيلها بعد أن احتجزتها لفترة تحت ثقلى، فذابت فى ظلام الليل كحصوة سقطت فى الهاوية.

- " كيف تستطيع الاستمتاع بجسد مشوه كذلك؟"

أجبت مكاريوس إن لم تكن هناك وسيلة أخرى لانتزاع خرقة من ثوبها.

- " سيدلنا كلبك على مكان العرافة العرجاء ".

مؤشــر:
عــروة

كـان عـروة لصـا، بالأسـاس. قـد يبـدو التـأكـيـد على هذا الأمـر غـريبـا إذا أخـذنـا بالاعـتبـار أن نهب قـبـائل الأعـداء كـان من أهم أنشطة أشراف البدو.

ولكن هناك فرقا مهما، وهو أن عـروة لم ينهب من أجل أهله، بل ليقسم غنائمه على المجرمين والمشـردين دون تفريق. وفى كهوف الجبـال كـون عـروة جـمـاعـة من المطاريد الذين عـاشـوا من سلبـه، وفاقت جرائمه جرائم الآخرين جميعا.

اعـتبـر العـرب أنفسـهم أهل كـرم، وكـان حق الضـيـافـة مقـدسـا لديهم، فكان من الواجب على كل شيخ قـبـيلة مهـمـا قل شـأنهـا أن يحمى أى إنسان يلتجئ إليه، أيا من كان، حتى لو كان عدوا لدودا.

ولـكن كـــان لمظاهـر الكرم تلك طابع شـــخـــصـى، ولم تـخل من أغـراض أخـرى. ولكن عـروة كـان أول من اعـتبـر الكرم فـضـيلة لا ترتبط بهوية الضيف أو المضيف.

وقال سارقا بيتا من أبيات حاتم الطائى:

- " لست من الغلظاء لآكل وحيدا ".

أحب عروة أن يقارن نفسه بالإبل التى تنحر وتقسم أرباعا ليقامر الناس عليها بالقداح، وكان يبدد قطعانا كاملة فى هذا النزع من اللهو مباهاة بثروته وزهده.

وكلما نصب تجار الخمر الشوام خيامهم وراياتهم، وبعثت القبائل إليهم بخدمهم ليملأوا قربهم الضخمة المصنوعة من جلود الإبل، أغار عروة عليهم ونهب مخزون الخمر بكامله ووزعه على السكارى بلا ثمن.

وفى أبيات مشهورة استقاها من شعراء آخرين يقص عروة جرائمه ويعبر عن احتقاره الشديد للضعفاء، ولمن يزحف بحثا عن عظام فى أطلال القبائل النازحة، ولمن يمد يده بسرور عندما يرى من يحلب ناقة.

ويذكر التاريخ رجلا آخر من أعظم الكرماء هو حاتم الطائى، وكان عروة يحب أن يسرق من أشعاره. ويقال إن حاتم كان سيدا من أسياد قومه، ولكن الكرم انتهى به إلى الفقر المدقع. ولم يحتفظ من ثروته المبددة إلا بفرس أسود كان أسرع الخيل فى الصحراء، وكان يقبل فمه كل ليلة.

وذات يوم زاره أغنى شيوخ العرب، ولكنه لم يفصح فى التو عن سبب زيارته وانتظر حتى تناول طعامه.

ووجد اللحم عسير المضغ، كما استغرب الكم الكثير منه، وخاصة وأن حاتم لم يكن حينها أكثر من متسول.

وبعد الانتهاء من الطعام تجشأ الشيخ وقال:

- " جئتك لأشترى فرسك ".

- " لو لم يكن فى بطنك لأعطيتك إياه بلا ثمن ".

كان عروة يعرف هذه القصة ويريد أن يتفوق على حاتم الطائى، فتجرد من ممتلكاته بدءا بما لا قيمة له وانتهاءً بأغلى ما عنده، بما فى ذلك سيف هندى أحدب طرقه أمهر صانعى السيوف فى البنجاب.

ورغم ذلك ظل مضطرا للسرقة لكى يعيل جماعته الهائلة من المتشردين. وذات يوم رأى السيف فى سوق من أسواق تدمر فقتل الرجل المسن الذى عرضه للبيع بخنجر كان هو الآخر مسروقا.

كانت هذه الحادثة بداية اختلال صواب عروة، حيث انقلب على من جاد عليهم بأمواله فأصبحوا ضحاياه.

وفى تلك الفترة قال بيتا لعله الوحيد الذى لم يسرقه من شاعر آخر:

وللهِ صعلوك صفيحةُ وجههِ كضَوءِ شِهابِ القابس المتنوِّر

وازداد جنونه بعد ذلك فقرر أن يخلص البشرية من الملكية الفردية بالقضاء على كل الناس، بدًا بالعصابة التى اجتمعت حوله فى كهوف الجبال.

وبالطبع مات مسلوخا كالكلب.

وقال وهو يحتضر: "نقصوا واحدا!"

(ذ)

ذال
الحرف التاسع
كرقم : ٧٠٠
بالتسلسل : الخامس والعشرون
أول حرف فى "ذهل" و"ذكر"

"أفضل الأشياء ما لا فائدة له"
- زهير

منذ عدة سنوات كنت فى مكتبة تبيع الكتب المستعملة فى شارع الكارمو، وعندما كنت على وشك إخفاء نسخة لاتينية من كتاب المجسطى لبطليموس فى ثيابى بنية سرقتها فاجأنى صوت أجش قائلا:

- "الأستاذ فلكى؟"

أجبته بالنفى وأوضحت أن اهتمامى بهذه الأشياء كان أدبيا وحسب، ولكنى شككت فى أنه هو الفلكى.

- "فى الحقيقة أَدرس الفيزياء فى المدارس المسائية".

وبلباقة أدرت الحديث إلى موضوع آلات الزمن. كان جوابه قاطعا: النمط التقليدى لقصص الخيال العلمى الذى تسمح فيه آلة الزمن للإنسان بالسفر إلى المستقبل أو العودة إلى الماضى، والتدخل فى مسار الأحداث مستحيل من وجهة نظر فيزيائية بحتة.

- "تتفق كل النظريات الكونية على أن الزمان والمكان مرتبطان ببعضهما، فلا يمكن للمادة أن تنفصل عن الزمن دون أن تنفصل فى نفس الوقت عن المكان، والعكس بالعكس".

طبقت هذا المبدأ على الحكايات التى سمعتها من اللبنانى صاحب الكبِة، فاستنتجت أنها كانت كلها باطلة. ثم توصلت أخيرا إلى سؤال أساسى عن إمكانية أن تسافر جسيمات الضوء التى تنقل صور الأشياء إلى أعيننا فى الفضاء إلى الأبد.

- "بدون شك، تستطيع تلك الجسيمات أن تسافر إلى الأبد إذا كان الفضاء بلا نهاية، أو بالفرضية المعاكسة. حتى حدود الزمان والمكان".

وسألته أيضا إن كان ممكنا لصورة تكونت فى الأرض أن تنعكس على حدود الكون ثم تعود إلى الأرض، بحيث يمكن رؤيتها فى نفس المكان الذى وقعت فيه. كما أردت معرفة التفاصيل عن المسافة التقريبية بين الأرض ونقطة الانعكاس والفترة الفاصلة بين الرؤيتين، وأخبرته بالدلائل التى استطاعت استنتاجها من القافية، فضحك قائلا:

- "يمكن ذلك فقط إذا سافرت الصورة بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وهو شيء مستحيل حسب النظريات الحالية".

وخرجت من المكتبة بغنيمتين: كتاب المجسطى لبطليموس واليقين بأن قوانين الكون تسمح بسرعات أكبر من سرعة الضوء (وهو شيء لم يحلم به قط طلبة المدارس المسائية).

لم يعد لدى أدنى شك فى أن عين جَدَه لم تكن إلا مرآة مكونة من مادة ما بإمكانها - تحت ظروف فلكية معينة - أن تعكس صورا تسافر بسرعات أكبر بكثير من سرعة الضوء وتعود إلى نفس المكان الذى تكونت فيه.

وقد يعترض البعض أن العرافة لم ترو تحركات الغطاش فى واحة السراب وحسب (وهذا شيء معقول)، ولكن أيضا أحداث يومه بالكامل فى الصحراء - و هو محال - حيث إنها لم تشاهد تلك الأحداث فى السماء من المواقع التى حدثت فيها.

ولكن هذه كانت خدعة من خدعها، فكل ما رأته بالفعل هو أحداث الواحة، أما الباقى فألمت به من أبيات القافية التى قال الغطاش إنه أنشدها "فى كل مكان"(±).

وبهذا لم تبق إلا مشكلة واحدة. إذا لم تكن عين جَدَه إلا نوعا من المرايا، وإذا لم يسافر من ينظر إليها فى الزمن ولكن يشاهد

(±) انظر فصل الطاء.

مناظرا حدثت لتوها (منذ نصف ساعة على الأكثر) فلا يعقل أن تختلف هذه الأحداث عن الصور المسجلة فى السماء.

وبالتالى لابد أن القافية تحتوى على عدة أخطاء؛ فمثلا عندما وصل الغطاش إلى القرية التى قابل فيها العرافة للمرة الأولى، فك طرفا من عمامته، ولكن هذا الفعل غير موجود فى الصورة المعكوسة فى عين جَدَه، كما رأتها العرافة. وأثناء هجوم غراب على دير المغارة، كان مكاريوس واقفا على نفس الدرجة التى وقف عليها الأب شكور، وكان ذو السيوف شاهرا سيفا واحدا، بينما تصور عين جَدَه مكاريوس على درجة أعلى وذا السيوف وفى كلتا يديه سيف. وفى حادثة الصحراء اصطحب الرجال كلبا واحدا، ولكن كلابا عديدة نبحت عند انقضاض الضباع عليهم فى الصورة المنعكسة فى عين جَدَه.

هل تعود الصور المعكوسة مشوهة؟ أم أن التشويه يحدث فى رؤيتنا للأحداث؟ وماذا نقول فى حادثة نجران التى يشهد فيها مكاريوس بأن الغطاش اخترق مخيم غراب؟(±).

(±) انظر فصول الطاء والكاف والراء والتاء.

استطراد:
المتاهة النبوئية

يعرف من يحبون الاستماع إلى الحكاوين الشعبيين فى مقاهى المدن العربية قصص امرأة أسطورية دائما ما ترتدى ثيابا سوداء تغطيها من الرأس إلى القدمين، وخمارا شفافا من نفس اللون. وتظهر هذه المرأة وتختفى بصورة مفاجئة تجعل الناس تظن أنها جنية، كما ترتكب السرقة وتحرض على الزنا وتنشر الأمراض وتتسبب فى كل ألوان الشر.

والحق أن هذه الكائنة من البشر، واسمها سيدة.

والمرجح أنها عاشت فى القرن السابق على ميلاد الغطاش، وكانت من قبيلة وثنية تقطن فى منطقة القُدَيد التى كان فيها معبد لمناة، إلاهة القدر الذى ينتهى بالموت.

وفى طفولتها قضت سيدة وقتا طويلا مع كهنة المعبد وسمعت نبوءة عن موتها.

ولأن الشباب لا يقبل الموت، أرادت سيدة أن تتأكد من النبوءة، فظهرت مرة أخرى أمام مناة وهى متنكرة فى زى رجل. ولا يعرف أحد كم مرة كررت تلك المناورة مع تغيير هيئتها فى كل مرة. ويقال إن الحال وصل بها إلى قص شعرها واقتلاع عينها اليسرى وبتر بعض أصابع يديها وقدميها.

اختلفت النبوءات شكلا واتفقت مضمونا، ولذلك قررت سيدة أن تتحدى الآلهة فلم تكتف برفض النبوءات، بل عزمت على تفادى الموت.

لا أحد يعرف كيف كانت تتسلل بين حجاج مناة لتستمع إلى قسمة كل منهم، ومكنها ذلك من اكتشافين كبيرين. أولا: تحققت من إمكانية وجود عدد غير محدود من النبوءات ذات التفسير الواحد لاغير (كما كان الحال فى النبوءات الكثيرة التى تلقتها). وثانيا: لاحظت أن هناك عددا محدودا من التفاسير الممكنة، وبالتحديد٢٧٣٢٤٨٠ مصيرا ذاتيا.

تمكنت سيدة من تصنيف كل هذه المصائر وكتابتها فى رمال الصحراء المتحركة، أما ذاكرتها فكانت مثل النقش على الحجر، وبمعرفتها للـ ٢٧٣٢٤٨٠ مصيرًا كان بإمكانها أن تتفاداها جميعا، بما فى ذلك مصيرها الشخصى.

وحسب شهادة الرمال، كان كل من الـ ٢٧٣٢٤٨٠ مصيرًا بمثابة متاهة. كان الموت حتميا ولا شك، ولكن الأشخاص ذوى المصير الواحد لم يصلوا بالضرورة إليه من نفس الطريق.

وما حقق الخلود لسيدة هو اكتشاف نقاط التماس بين الـ ٢٧٣٢٤٨٠ متاهة، مما سمح لها بالقفز من متاهة لأخرى قبل أن تؤدى أى منها إلى الموت. كان هذا ممكنا أحيانا بنقل قطعة الخبز من يد لأخرى قبل رفعها إلى فمها، أو بتغيير اتجاهها فجأة وهى تمشى، أو بحركة قد تبدو تافهة، أو حتى بالسرقة أو القتل أو التحريض على الزنا أو نشر الأمراض وأنواع أخرى من الشر.

وهنا لابد من إشارة جانبية. استند المضاربون المحنكون إلى قصة سيدة فى تحليل الرقم ٢٧٣٢٤٨٠ وتوصلوا إلى أنه يساوى ٣×٥×١٢°، وهو عدد التوافقات الممكنة للنجوم السبعة المستعملة فى علم الفلك القديم والبروج الاثنى عشر.

وكان هؤلاء الحكماء أول من قالوا بنظرية أن تعداد جميع البشر من أول الخلق إلى وقتنا الحاضر لا يتعدى ٢٧٣٢٤٨٠ نسمة. أما بقية هذا الكم الهائل من الناس فليسوا إلا أجسادا ذات وجدان زائف. وكانت المشكلة الوحيدة التى واجهت هؤلاء العلماء هى عدم استطاعتهم التفريق بين الأناس الحقيقيين وتلك الأجساد الآلية التى تظن نفسها من بشر.

ولكن لا يوجد دليل على أى من هذا. كل ما نعرفه هو أن سيدة لا تزال حية وأن مناة لم يعد لها معبد فى قُدَيد.

تشارك سيدة فى كل المصائر لكى تتجنب الموت، ولكننا للأسف لا نتذكرها إلا عندما تضر بنا. ولا أعتقد أن من حقنا أن ندينها، فذنبها الوحيد هو الدوران فى المتاهات، كما أن الوازع الحقيقى لكل جريمة هو الدفاع المشروع عن النفس.

(ض)
ضاد
الحرف الخامس عشر
كرقم: ٨٠٠
بالتسلسل: السادس والعشرون
أول حرف في "ضب" و"ضحكة"

"ما دمت لا أعرف ساعة موتى فأنا خالد"
- الحارث بن حلزة

عندما شم كلب مكاريوس الخرقة المنتزعة من ثياب الغراب الأعرج نبح باتجاه صخرة المراقبة، وكانت العرافة مختبئة فى ذلك المكان المقفر أعلاها.

حثثت ناقتى بالسوط إلى مخيم غراب، فترك عرقها أثرا فى الرمال مثل مجارى السيول، ثم نزفت دما ولبنا وبولا حتى سقطت منهكة أمام المثنى.

- "تعيش الغراب فى أنقاض صخرة المراقبة".

واتبعت خيول غراب أثر الدم واللبن والبول والعرق، ومروا بمكاريوس الذى لحق بى عن بعد وقال:

- "إنهم فى الطريق الصحيح. قريبا ستحظى بليلى".

نظرت إلى البساط الموشى الذى حجب خيام النساء، ولكن حجزته عنى ألف ومئة من الخيول السوداء ذات العيون الخضر، ووقف أمامها ذو السيوف.

- "انتهيت لتوى من جمع آخر فرس فى القطيع. هاهو مهر ليلى الذى وعدت به عندما أخذ كلب اللبؤة هذا صباح".

عندها فقط أدركت سبب مماطلة الشيخ. ولأول مرة أعجبت بعدوى، وأثنيت على الاتفاق الذى سنح لى الفرصة للاستيلاء على امرأتين من رجل يقاتل بكلتا يديه.

وفجأة ظهرت سحابة تراب عند الأفق من اتجاه صخرة المراقبة، وفى نفس الوقت ظهر شىء على هيئة إنسان فى الاتجاه المعاكس من صحراء الرمال القانية، واقتربت الصورتان من بعضهما بعضا كنقطتين تسيلان على جدار قمع.

وسرعان ما ميزت فرسان غراب، ولكنى رفضت أن أصدق ما رأته عيناى فى الجانب الآخر.

- "هذا ما وجدناه عند صخرة المراقبة!"

وقـذفـوا فى وجـهى أغـرية مـيتـة كـانت كل مـا اسـتطاع كلب مكاريوس أن يشمه فى الخرقة التى انتزعتها من ثياب العرافة التى ظهرت ساعتها وهى تعرج فى مشيتها الملتوية تلك أمام الأحياء الذين كادوا لا يصدقون أعينهم، حتى دخلت بقدميها إحدى خيام غراب.

مؤشـــر:

لبيـد

مـات الغطاش فـى شـبابه، أمـا لبـيـد فكان من قـلائل الشـعـراء المعمرين الذين عاشوا أكثر من مئة سنة. بلغ لبيد من العمر إما مئة وخمسين أو ألف وخمسمـائة سنة، والفرق بين الرقمين صفر يكتب بالعربية على شكل نقطة صغيرة.

طال عمر لبيد حتى عاصر النبى ﷺ وأسلم.

ويشترك اسم لبيد فى الجـذر مع "لُبَد"، وهو اسم سـابع النسور التى يـرتبط كل منهـا بروح من الأرواح السـبـعـة للحكيم الأسطورى لقمـان، واعتقد البـدو أن النسر كـان حيوانا طويل العمر، وكـانت كل حيـاة للقمان بطول عمر نسـر من نسوره السبعة بالتتابع، مما أطال عـمـره أكثر من سـبـعـة قـرون. ومع ذلك لم يهتم أحد بفرضـيـة أن لقمان كان نفسه نسرا.

ولكن قبل أن يكون شيخا متوجا بالحكمة الدنيوية المحدودة، كان لبيد صبيا ثم رجلا شارك فى حروب الجاهلية، وكان بطلا، كما ينبغى لشعراء العرب.

وهناك فصل غريب فى سيرة لبيد. أثناء الصراع الأبدى بين قبيلة غسان، حليفة الروم، وقبيلة لخم التى آزرت الفرس، بعث لبيد الذى كانت له مكانة رفيعة عند لخم بهدية ثمينة لشيخ تلك القبيلة برهانا على ولائه ومحالفته لهم. كانت الهدية عبارة عن ألف صندوق من الأحجار والمعادن الكريمة، محمولة على ظهور ألف فرس بالغ الجمال وثمين العدة كانت أيضا ضمن الهدية.

وعندما تلقى شيخ لخم الهدية انقض عليه ألف فارس مسلح كانوا مختبئين فى الصناديق، وكانت رأس الشيخ من بين غنائم الغارة.

من لا يستطيع أن يرى فى هذه القصة الأصل التاريخى لأسطورة حصان طروادة التى رواها هوميروس؟ وهذا أكبر دليل على قدم لبيد.

كان لبيد حكيما وشاعرا وفارسا، كما حارب وسكر وأحب ولعب القمار وخان حلفاءه. ومعلقته من أجمل المعلقات بلا شك، ونظمها على أكثر البحور صعوبة فيما لا يقل عن ثمانية وثمانين بيتا فيها خلاصة كل مواضيع الشعر الجاهلى، الصريح منها والضمنى. وقد

استطعت أن أترجم منها إلى البرتغالية أقل أبياتها صعوبة، ومنها:

عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُهَا   بمنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا
فمدافعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رسمُها   خلقًا كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها
وجَلا السُّيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها   زبرٌ تجِدُّ متونَها أقلامُها

...

فوقفتُ أسألُهَا وكيفَ سُؤالُنَا   صُمًّا خوالدَ ما يُبينُ كلامُها

تصف بقية القصيدة المشهد التقليدى لرحيل النساء اللاتى يشبهن البقر المتوحش والظبى الأبيض والسراب الذى يذوب حتى لا يتبقى منهن إلا آثار فى الرمال.

ودون مقدمات ينصرف لبيد عن موضوع الفراق عن المحبوبة إلى وصف ناقته. وله هنا بيت خالد:

فاقطعْ لُبانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ   ولَشرُّ واصلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها

ومن الخبرات العاطفية التى حصل عليها على مدار قرون توصل لبيد لنظرية شاملة عن طبيعة المرأة. تتحدث معلقته عن الناقة والأتان والبقرة الوحشية والفرس، وكل منها كناية عن صنف من أصناف النساء.

ويتلو ذلك مشهد فى خمارة وفخر بالقبيلة وحرب وقنص.

مات الرسول قبل أن يشهد لبيد أن "لا إله إلا الله" ويعتزل الشعر. وأتى لبيد الكثيرون من البدو يسألونه عن السبب، فرد عليهم قائلا:

- "الله واحد والكتاب واحد. صلى الله على رسول معجزته الكتاب".

وفى رأيى أنه لا توجد إلا قصيدة واحدة، هى قصيدة لبيد المعلقة على جدار الكعبة.

وكان إسلام لبيد بمثابة نهاية الشعر الجاهلى. وفى ظنى أن لبيدًا - وقد جعدته السنون وأدركه الموت الذى ينتهى به العمر مهما طال - لم يكن إلا النسر لُبَد ذاته. كان الفرق بينهما محصورا بحرف علة، إلا أن حروف العلة - على العكس من الأصفار - لم تُرسم فى الكتابة العربية القديمة.

(ظ)

ظاء
الحرف السابع عشر
كرقم : ٩٠٠
بالتسلسل : السابع والعشرون
أول حرف فى "ظل" و"ظن"

"لا أحب كل ما عندى، ولكن عندى كل ما أحب"
ـ النابغة

كانت صخرة المراقبة عبارة عن أنقاض برج قديم شيد كحصن لصد هجوم جيوش الحبشة، ونستطيع من الإشارة إليها أن نستدل على أن الواحة التى سكن عندها قوم المثنى فى ذلك الحين هى واحة باب الرمال الواقعة على حدود الربع الخالى، أشد صحراوات الجزيرة اقفرارا ومقبرة لكل من غامر بالسفر فيها.

شهد هذا المكان آخر أحداث قافية القاف وموت الغطاش واندثار سلالة غراب. وكلها وقائع تنبأت بها (وربما تسببت فيها) العرافة العرجاء.

يوضح هذا المقطع من القصيدة أن شخصية العرافة المبنية على صورة الغربان تنتمى لسلالة غراب، ولكنها طُردت من القبيلة، فدفع ذلك بالعجوز لصب لعنة عليهم أدت لهلاكهم عن آخرهم. وحسب قولها هى، سيحدث ذلك يوم تعود بقدميها لخيامهم.

أراد شيخ غراب أن يبطل نذير الشر هذا بأن يمسك بها بيديه ويقيدها إلى سرج حصان ويعود بها إلى المخيم، ولكن القدر أملى شيئا آخر.

وفى اللحظة التى يرشقها فيها المثنى بكل السهام التى فى جعبته ويدرك الغطاش فشله فى تحقيق الشرط الثالث، يظهر عند الأفق حشد آخر. ترفع غراب راياتها وتشهر سيوفها وتصف خيولها استعدادا للمعركة، ولكن سريعا ما تجد نفسها محاطة بفرسان صالح وحلفائهم الذين كانوا فى كثرتهم مثل الرمال فى قبضة اليد.

يموت الكثيرون ويفر الآخرون فى الاتجاه الوحيد المتاح لهم، وهو الربع الخالى. لا يفرون بوصفهم كقبيلة، ولكن باعتبارهم أفرادًا مرتعدين ينتشرون كيفما اتفق. هذه كانت نهاية بنى غراب الموعودة.

وينطلق الغطاش فى صحبة مكاريوس (الذى حفظ الأبيات الأخيرة للغطاش فى ذلك اليوم) فى أثر ليلى التى لا تتردد فى أن تردف ذا السيوف على فرسه.

ويدخل الشاعر الصحراء ويعدو أحد عشر يوما (وهو ما يصعب تصديقه) بحثا عن المرأة ذات الخمار، وينبهه مكاريوس أن ذلك يوم بريق عين جَدَه فى السماء. وكان الليل على وشك الهبوط وينذر بزوبعة رملية.

ومن خلف تل رملى صغير تظهر ليلى ويرشق ذو السيوف ناقة اللبؤى بسهامه فيطيح بها. وتعصف الريح عصفة لا تحل خمار ليلى التى تختفى على فرس ذى السيوف.

يصيح مكاريوس بالغطاش الذى يصر على المضى على قدميه وحل لغز القاف أخيرا بالتطلع فى عين جَدَه.

يقرر الراهب العودة بمفرده بعد أن يشير إلى الموقع المحدد من السماء الذى تتشكل فيه الظاهرة. ولا يكاد يدير ظهره حتى يسمع الشاعر وهو يتغنى بجمال فرس من أفراس غراب وبعرفها الأسود وشفتيها الغليظتين ووركاها العريضين، تمامًا كما حدث فى اليوم الذى لمح فيه وجه صباح، المرأة التى كان يبحث عنها وقد كانت فى حوزته.

استطراد:
راقصات أمير

الحب بصورته التى نعرفها اليوم مفهوم هندى، إن لم يكن صينيا، ولكنه لم ينشأ من التجارب الحسية الخالصة لتلك الشعوب، كما يقال، بل من تجاربهم الروحية، ولذلك كان تطور الإثاره الجنسية فيه بطيئا. وفى هذا المجال، ينبغى الاعتراف بأسبقية العرب.

فى الحقبة التى سيطرت فيه قبيلة فدوى على المناطق الصحراوية ومعظم الواحات الممتدة من جنوب شبه الجزيرة إلى شمالها، كانت عشائر البدو تحكمها النساء. وكما هو الحال فى بعض أنواع الحيوان، مارس السلطة الجنس الأجمل.

وكانت النساء يجذبن إليهن الرجال الذين تردن، وكان ممنوعا على الرجال أن يأخذوا المبادرة. وكثيرا ما كان النزاع على الرجال يؤدى إلى الصراع وحتى إلى الحروب القبلية، مما يثبت أهمية الرجال فى النظام الأنثوى.

وعلى الرغم من أهمية الممتلكات والقطعان، آلت القيادة فى العادة إلى المرأة ذات العدد الأكبر من الأزواج، فكان عدد الأزواج دليلا على مدى ثراء البدوية.

وكان خطف الرجال شائعا، وكذلك التشويه الجسدى لأزواج الأخريات. ولكن سرعان ما أدركت نساء العرب أن باستطاعتهن ممارسة نفوذ أكبر وأكثر دواما على الرجال من خلال الإغراء الجنسى. ونتج عن انتشار هذه الفكرة ظهور معظم فنون الإغراء المعروفة فى العصور القديمة.

ومنذئذ تقدمت المعارف الطبية والصحية والجنسية تقدما هائلا. فكان العرب أول من عينوا البظر واستكشفوا وظيفته، ومن خلال تجاربهم على الحيوانات اكتشفوا أيضا وسائل التخصيب الصناعى، مما مكنهم من تحقيق نجاح مدهش فى تحسين سلالات الخيل، حتى أصبح الحصان العربى أفضل أنواع الخيول على الإطلاق.

وغنى عن التعريف تطويرهم لصناعات العطور والأصباغ والحلى، كما انتشر عندهم فن النسيج انتشارا مماثلا، فابتكروا الخمار الذى انحصر استعماله فى ذلك الوقت فى حماية الوجه والشعر من لهيب الشمس ومن عواصف الرمال.

وفى خيامهن التى عبقت بالبخور تجملت البدويات وتعطرن ولبسن الثياب المزخرفة والحلى الثمينة. وأخضعن الرجال لفنون الإغراء التى أردن بها التفوق على غريماتهن.

وفى مسابقات عامة عقدت فى ساحات المخيمات، رقصت النساء لإغراء الفتيان العزب.

وفى تلك الحقبة بالتجديد اكتسبت الموسيقى العربية نوعا جديدا هو الرقصة التى تعرف فى الغرب باسم "رقص البطن" وفى العالم العربى باسم "الرقص الشرقى". ويعتمد هذا الفن الموسيقى على إيقاع بالغ النشاط وربابة منفردة، ولم يصاحب تلك الموسيقى أى غناء. حيث كان الرقص بمثابة التعبير الذاتى الوحيد.

وتنسب الأسطورة لرجل يدعى «أمير» الفضل فى ابتكار الرقصة بعنصريها الموسيقى والراقص. وانتشرت الرقصة فى الصحراء بسرعة غير عادية. ولم تلبث أن أصبحت الفن الوحيد الذى مارسته النساء فى عروضهن أمام الشباب العزب.

وحسَّن أمير عناصر ابتكاره فأدخل عليه حركات رقيقة للرأس والعنق والصدر، وزاد من عدد الإيماءات وأنواع الخطوات، وأهم من هذا وذاك أنه أضاف أبعادا جديدة لحركات الوركين والبطن.

ولما طالبت أميرات العرب بأكثر من ذلك. تمكن أمير من اختراع لغة للرقص، بل وأيضا من كتابتها. فعلى أساس الأبجدية العبرية التى تعرف عليها خلال أسفاره فى مصر، توصل لنظام توازى فيه كل حركة مقطعا لفظيا من مقاطع اللغة العربية، وبهذا شكلت كل سلسلة من حركات الرقص كلمة ثم جملة. وعلم أمير اكتشافه هذا لكل راقصة بمفردها فى السر.

واستعملت البدويات تلك الحروف المتطايرة والكتابة غير المكتوبة للتبشير بالمتعة واللذة والحماية والثروة فى جمل زاد إتقانها باحتدام المنافسة. إلا أن الرجال ببلاهتهم لم يلاحظوا أى تجديد وظلوا أسرى للفن القديم.

ونتج عن ذلك ظاهرة جديدة، فأصبحت الراقصات يأتين من جميع أنحاء الجزيرة للرقص أمام أمير ولا أحد غيره.

وهكذا بسبب اختراعه أصبح هذا الرجل البسيط الذى قيل إنه كان عبدا هو الوحيد القادر على الاستمتاع بمفهوم جديد للجمال.

ومن السهل أن نرى كيف بدأ الرجال فى السيطرة على القبائل العربية منذ ذلك الحين، فثاروا على النساء اللاتى أغرينهم ثم هجرنهم من أجل أمير.

وفى يوم موعود، أُخصى أمير وعُذب وقُتل على يد جماعة وحشية من البدو الذين بدأوا بمطاردة النساء، وكأنهم يكتشفون قوتهم لأول مرة.

(غ)

غين
الحرف التاسع عشر
كرقم : ١٠٠٠
بالتسلسل : الثامن والعشرون
أول حرف فى "غسق" و"غرق"

"أفضل العميان من أراد الإبصار"
- لمجهول

هذه إذن الخطوة الأخيرة. عكست عين جَدَه للغطاش المشهد الذى عاشه لتوه، ولكن بتشويش طفيف: ظهور ذى السيوف وليلى من خلف الكثبان الرملية، وموت الناقة، وعصفة الريح، وخمار ليلى الذى انزاح كاشفا عن وجه صباح الذى رآه الشاعر للمرة الأخيرة قبل أن تختفى صاحبته على فرس ذى السيوف.

تخلى مكاريوس عن الغطاش بعد أن حفظ قافية القاف بكاملها عن ظهر قلب، وكان قد سمع آخر أبياتها.

ولكن حتى هذه الأبيات الأخيرة التى يزداد جمالها كلما قُرئت فشلت فى الفوز برضى من ينكرون صحة القصيدة. بل على العكس، يعتقد هؤلاء أن نهاية القصيدة بهذا الشكل تثبت أنها ليست إلا نكتة حبكها مزور معاصر بكل مهارة وتبحر فى العلم.

ويرتكز برهانهم الرئيسى على تحليل أسماء الشخصيات، حيث إن "صباح" كناية عن الوجه المكشوف الذى ينسكب عليه الضوء، و"ليلى" كناية عن الظلمة والوجه المنقب دوما.

ويرى البعض فى ذلك دليلا على أن الاثنتين شخصية واحدة يتغير اسمها عندما ترتدى الخمار أو تنزعه. وهكذا عندما عكست عين جَدَه صورة ليلى وقد انحسر خمارها رأى الغطاش وجه صباح.

ويستدلون على هذه الفكرة بعدم وجود ذكر لصباح فى القافية بعد أن تركها الغطاش، وبأن الأختين لا تجتمعان أبدا فى مشهد واحد، حتى عندما كان الغطاش واللبؤة فى مكة فى شهر الحج.

وأعتقد أن عدم ذكر الغطاش لها سببه على الأرجح، أنها بيعت جارية بعد أن ردها الغطاش لقبيلتها. وكنت قد قرأت فى كتاب ما عن راقصة عربية تدعى صباح كانت السبب فى صراع بين عدد من جنود الرومان التابعين لحامية يافا أدى إلى مقتل بعضهم. ولكن هذا ليس إلا افتراضا.

ولكن هذه الفرضية أفضل عندى من تفسير آخر بالغ الضرر لأنه يعرض القافية للسخرية ويثير غضبى. وفى وجهة النظر تلك

أن الشيخ المثنى (ودلالة اسمه التثنية والتكرار) تلقى هذه التسمية لكونه أبا لتوأمتين، وأن الغطاش (من الغطش، أى ضعف البصر، وكذلك الظلمة) لم يستطع التمييز بين وجهين مختلفين فاكتسب لقبه لعظم غباوته، حيث رأى ليلى وظنها صباح.

لا أقبل هذا الاستخفاف بالشعر، ولا أستسيغ مزاحا بهذا الخبث. كما لا أصدق أن جدى نجيب الذى حدق فى التلسكوب بكل جدية وأكد إمكانية الارتداد فى الزمن لم ينجح فعلا فى التجربة وفى إثبات ظهور عين جَدِّه.

ولهذا تعمقت فى دراسة علم النجوم وتعلمت استعمال آلات مختلفة مثل ذات الربع والسدسية والإسطرلاب والتلسكوب، بالإضافة إلى التقويم والخرائط الفلكية. ولكنى لم أجسر على القيام بالتجربة بنفسى حتى الآن.

فأنا خائف من اكتشاف معنى آخر للقافية، وخائف من التعرف على صورة أخرى من نفسى.

تذييل

سيقول العارفون بالأدب العربى إن بعض الروايات المذكورة هنا من سير الشعراء لا ذكر لها فى المصادر المعروفة.

أرجو أن يتفهم هؤلاء النقاد طبيعة الأسطورة.

كما لا تتهمونى بالزيف، فالزيف من جوهر الأشياء.

المؤلف فى سطور:

ألبرتو موسى

ولد فى ريو دى چانيرو بالبرازيل فى عام ١٩٦١، وهو من أصل لبنانى، ودرس الرياضيات قبل أن يحصل على دكتوراه فى علم اللغويات من جامعة ريو دى چانيرو الفيديرالية؛ حيث درس لغات غرب إفريقيا وسكان البرازيل الأصليين، ثم درس بعد ذلك اللغة العربية والأدب الجاهلى. له العديد من الروايات التاريخية التى تتناول العلاقات الثقافية بين البرازيل والكثير من الحضارات الأخرى. وحصل على الكثير من الجوائز الأدبية فى البرازيل وأمريكا اللاتينية، منها جائزة المكتبة القومية وجائزة دار الأمريكتين التى فازت بهما رواية لغز القاف، والتى نشرت لأول مرة فى ٢٠٠٤. كما ترجم ألبرتو موسى المعلقات إلى اللغة البرتغالية وألقى عنها العديد من المحاضرات فى جامعات البرازيل.

المترجم فى سطور:

د. وائل حسن

أستاذ الأدب المقارن بجامعة إلينوى - أوربانا، بالولايات المتحدة. له بالإنجليزية مؤلفات كثيرة فى النقد الأدبى منها كتاب «الطيب صالح: الأيديولوجية وفن القصة» (٢٠٠٣)، وكتاب «سرد المهاجرين: الاستشراق والترجمة الثقافية فى الأدب العربى - الأمريكى والعربى - البريطانى» (٢٠١١)، كما ترجم كتاب عبد الفتاح كيليطو «لن تتكلم لغتى» إلى الإنجليزية (٢٠٠٨) واشترك فى تحرير كتاب عن طرق تدريس أعمال نجيب محفوظ (٢٠١٢). وله بالعربية مقالة عن ألبرتو موسى والأدب العربى - البرازيلى نشرت فى «ألِف: مجلة البلاغة المقارنة»، العدد ٣١ (٢٠١١): ٢١٥ - ٢٢٩.